

## الفصل الثالث والعشرون

### نظريات أخرى في الحياة والمعرفة الحديقة والرواق

بينما كان العالم القديم ، ومعه الثقافة اليونانية القديمة ، يقتربان من النهاية . كان هناك مفكرون كثيرون لم يقنعوا بما أسفر عنه الفكر من ثمرات أصبحت مقبولة في الأكاديمية أوفى الليسيوم . وقد ظل العقل اليوناني يؤكد أصالته واستقلاله مع ما صار يغشى حياة الإغريق من صنوف الاضطراب والقلق السياسي والاقتصادي . وربما كان مما يعزى اليونان ، وهم يعانون آلامهم الروحية الأخيرة . أن يؤمنوا بأن أهم شيء في الحياة ليس هو أن يملكوا ناصية القوة ، بل أن يعرفوا الحقيقة ويعملوا بمبادئ الفضيلة ؛ ولذلك كانوا متبئين لأن يجهروا بأن على الإنسان أن يجعل الشأن الأعلى للمسائل الأساسية ، فتساءلوا : وما أصل العالم ، وما حقيقته . وما غايته . وبخاصة نحن بني الإنسان ؟ ومتى كانت بداية العالم ، إن كانت له بداية ؟ وهل العالم مادي أوروحاني ؟ وما نحن بني الإنسان ؟ من أين جئنا ، وإلى أين نحن صائرون ؟ ثم ما الحقيقة ؟ أمن الممكن أن نعرف ؟ وإذا كان يمكن أن نعرف ، فكيف نعرف أننا نعرف ؟ هل نستطيع أن نعرف العالم ومكاننا فيه ؟ وما الفضيلة ؟ وهل يمكن أن نصل إليها . . . ؟

فيما تقدم من هذا الكتاب نظرنا في الإجابات التي أجاب بها بعض الفلاسفة . وبخاصة أرسطو وأفلاطون ، عن هذه الأسئلة الحائرة . ولكن غيرهما من الفلاسفة اقترحوا إجابات أخرى . ننظر فيها الآن . وأهم ما ينبغي ألا يغرب عن البال أن هذه الأسئلة ليست مجرد أسئلة تبحث في مجالس العلم . ولا هي أسئلة فارغة لا يظفر الإنسان من ورأها بطائل . على أننا ربما اعتبرناها كذلك ، ولكن هذا

إنما يجيء من أننا - قد فقدنا كل إحساس بقيم الأشياء ، فأصبحنا كملاحين ضاعت منهم « البوصلة » أو انكسرت ، أو تبينوا أن سفينتهم صارت لا تستجيب للدفة .

إن هذه الأسئلة لم تكن عند اليونان مجرد أسئلة من شأنها أن تبحث في مجالس العلم بل كانت أسئلة حيوية وأشد إلحاحاً من نوع آخر من الأسئلة مثل من هو الملك أو المدير ؟ كيف ندفع الإيجار في الشهر القادم ؟ هل نستحق نحن أنفسنا أن نكون سعداء أولاً نستحق ؟ ؟ فلنسائل إذن هؤلاء الرجال الجهادين ! وهم ينتمون إلى المدارس أو الفرق الآتية :

الكليون . المتشككون ، اليوهيرميون ، الأبيقوريون ، الرواقيون .

### الكليون The Cynics

كانت مدرسة الكليين أقدم من عصر أرسطو بكثير ، ويمكن تتبع أصلها حتى تنتهي إلى سقراط ( ولا شك أنه كان في نظرة سقراط للأشياء وفي طريقتة في الحياة شيء من نزعات الكليين ) . والذي يعتبر في العادة مؤسس هذه الفرقة هو انتستينس . وكان من تلامذة سقراط الذين أخذوا عنه مباشرة . أبوه أثيني . أما أمه فكانت من تراقيا ، ولذلك تعلم في مدرسة كينوسارجيس Cynosarges وكانت خارج أثينا موقوفة على هركليس ، مخصصة لمن ليسوا من أصل أثيني خالص . وقد علم هو أيضاً في تلك المدرسة . وقيل إن اسم مذهبه مشتق من اسم كينوسارجيس . وهذا جائز ، غير أن الأرجح هو أن تكون كلمة « كلي » مشتقة من أحد الأصول التي اشتق منها اسم مدرسة كينوسارجيس ( كلب = cyon, cyons ) ، وعلى هذا يكون معنى الكلمة . في الأصل هو : « ما يشبه الكلب » ، وذلك لأن انتستينس غلا فيما كان يعيل إليه سقراط من العيش على أبسط صورة . ومن اطراح كثير من الاعتبارات الاجتماعية وأساليب الرفاهية التي تواضع عليها الناس . لا يعرف تاريخ مولد انتستينس ولا تاريخ وفاته . على أنه لما كان تلميذاً

لجورجياس ولسقراط فلا بد أنه كان ما يزال فتى في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد. وأشهر تلاميذه هو ديوجينيس السينوبى<sup>(١)</sup> Diogenes of Sinope الذى صار غلوه في الزهد مضرب المثل . وكان والد ديوجينيس يتولى دار سك النقود في سينوب ، ثم وقع في متاعب ، لأنه آثم بتزييف العملة . وسواء أكانت جريمته شخصية أم سياسية فإنه اضطر إلى الخروج من سينوب<sup>(٢)</sup> ، وعاش هو وابنه ديوجينيس في فقر شديد ، فكان من شأن الفلاسفة التى يعلمها انتستينس أن تلقى أحسن القبول ، خصوصا عند الابن ، لأنه تبين له فيها أن الفقر لا يصح أن يعتبر عقوبة . بل شيئا يتكامل به الإنسان لقاء فضيلة له منقطعة النظير . وقد نادى ديوجينيس بوجوب استغناء الإنسان بنفسه ، وبالزهد والتحرر من الحياء ، كما أظهر من جانبه احتقارا للعرف الاجتماعى إلى حد التهجم عليه . وهو لم يزد جديداً في الفلسفة التى كان يعلمها انتستينس ، ولكنه جهل بها حتى جعلها شيئا يشبه التمثيل المسرحى . وقد حكينا من قبل تلك الحكاية (الأسطورية) المتعلقة بتوبيخه للإسكندر الأكبر ، وهى حكاية تزيد كثيرا في بيان فضل سيد الدنيا .

أما أكبر تلاميذه فهو كراتيس وكان ابنا لأسكونداس الطبيعى Ascondas of Thebes (٣٦٥ - ٢٨٥ ق . م .)<sup>(٣)</sup> الذى زهد في ثروة كبيرة من أجل الفلسفة ، وقصر حاجاته على قدر أدنى ، وألزم نفسه ألا يتجاوزها أبدا . وقد أدخل في مذهبه ابنين لأسرة من أشرف تراقيا ، وهما هيبارخيا Hipparchia وأخوها متر وكليس من أهل مارونيا Metrocles of Maroncia . وقد تزوج الفتاة ، فعاشا معا كما يعيش أفقر الدعاة إلى الأديان ، أو كما يعيش شحاذان . وكان لكراتيس شئ من الموهبة الشعرية ، ويظهر أن الزوجين كانا شخصين تميل إلى محبتهما القلوب ميلا كثيرا .

ولنذكر تلميذا آخر من تلامذة ديوجينيس ، هو أونيسيكر يتوس Onesicritos من أهل أستيبالايا (إحدى جزر بحر إيجه) . وكان ملاحا صحب الإسكندر إلى آسيا ، فكان القائد الأكبر للأسطول الذى بنى على نهر الهيداسبيس

Hydaspes ، وظل قائدا طول الرحلة إلى أدنى نهر السند ثم إلى داخل الخليج الفارسي ، وكان أحد مؤرخي الإسكندر ، لكن صدقه في تاريخه موضع شك . ولما كان كليبيا فقد أسبغ على الإسكندر صورة بطل كلبي ، وقد يكون مصيباً في ذلك ، فأغلب الظن أن الإسكندر اكتسب بعض نزعات الكليبيين ، فالدكتاتور الناجح لامندوحة له عن أن يصير كليبيا .

ومن بين هؤلاء الرجال الأربعة - انتستيس ، وديوجنيس ، وكراتيس وأونيسيكريتوس - لم يكن هناك فيلسوف بالمعنى الفني للكلمة إلا أولم . فأما ديوجنيس وكراتيس ، وزوجته هيبارخيا ، فكانوا يشبهون كثيرين غيرهم من القديسين والزهاد الذين ظهروا في كل البلاد تقريبا ، وخصوصا في الشرق . وكان كراتيس خاصة أشبه بالفقير الهندي ، وبالدرويش المسلم ، وبالكثيرين من أهل الصوامع من النصارى ، وهناك سمة أو أكثر من سمات المذهب الكلبي في كل قديس . ومن الممكن أن نسأل : هل تأثر ديوجنيس ، أو كراتيس بما شاهداه من نماذج الزهد الهندي ؟ إن هذا ممكن ، لكنه ليس ضروريا لتفسير طريقتهما في الحياة . أما أونيسيكريتوس فلا بد أن يكون قد رأى الفقراء في الهند ، لكنه هو أيضاً لم يكن محتاجا ، ولا كان الإسكندر محتاجا ، إلى مشاهدة هؤلاء الناس لكي يظهر احتقارهما لثقافة الحياة ومظاهرها الجوفاء .

ولم يكن الكليون ، بأى وجه من الوجوه ، يؤلفون مدرسة فلسفية بالمعنى الحقيقي ، نعم ، كان انتستيس يشرح ما يمكن أن يسمى مذهبا كليبيا . وهو أن السعادة تقوم على أساس من الفضيلة ، وأن الفضيلة تقوم على المعرفة ، وأن المعرفة يمكن أن تعلم ؛ وعلى هذا يمكن تحصيل الفضيلة والسعادة ، ولا يمكن أن يفقد الإنسان سعادة يحصل عليها من هذا الطريق . وقد قبل أتباع انتستيس هذه الآراء ، ولكن نزعتهم الكلية كانت أشبه بطريقة في الحياة منها بمذهب نظري ؛ كانوا أشبه بالمبشرين والدعاة إلى الخلاص من آفات الدنيا منهم بعلماء اللاهوت . والنزعة الكلية حال نفسية تتصل بالمزاج ، ولا شأن لها بمذهب نظري ؛ وكل فلسفة أو ديانة يمكن أن تخرج لنفسها ( من بين معتقياها ) كليبيين وقديسين .

## المشككون The Skeptics

بينما كان أونيسيكريتوس يحاول تفسير الحياة على حسب مبادئ الكليبيين ، كان هناك مفكر آخر من الطراز اليوناني - الهندي ، وهو بيرون ، ينشئ مذهبا جديداً هداماً أيضاً ، أو كان من شأنه أن يصير كذلك . وبيرون ( ٣٦٠ - ٢٧٠ ق . م . على وجه التقريب ) هو ابن بلايستارخوس Pleistarchos من مدينة إيليس Elis ( الواقعة إلى الشمال الغربي من اليلوبونيز ) . ولما كان أبواه فقيرين . فإنه اضطر إلى أن يتعلم حرفة ، فصار رساما ؛ ولكنه كان شديد الشغف بالفلسفة ، فتعلم على بريسون بن ستيلبون<sup>(٤)</sup> في أول الأمر ، ثم تتلمذ فيما بعد لأنكسارخوس الأبديري Anaxarchos of Abdera وكان أحد أصحاب ديموكريتوس . ويقال إن كلا من أنكسارخوس وبيرون صحبا الإسكندر إلى آسيا ( ومن الطريف أن نجد كثيراً من الفلاسفة ورجال العلم في صحبة هذا الغناج ) ، وكذلك اختار بونايرت كثيراً من رجال العلم في حملته على مصر<sup>(٥)</sup> . وبعد أن عاد بيرون من آسيا استقر في مدينة إيليس . مسقط رأسه . وفيها قضى حياته في عزلة وتقال شديد من الدنيا . وهو لم يكتب شيئاً . سوى قصيدة وجهها إلى الإسكندر ، ولكن تلميذاً وفيها له . وهو تيمون ، من أهل فليوس ، ( ٣٢٠ - ٢٣٠ ق . م . على وجه التقريب )<sup>(٦)</sup> خلد ذكر أستاذه وأشاد بحكمته وفضائله .

ولا يمكن أن يقال في بيرون ما قيل في معظم الأنبياء من أنهم لم يكن لهم منزلة في قومهم ، بل نحن نجد ، على العكس من ذلك . أن مواطنه جعلوه كاهنهم الأكبر ، وأقاموا نصبا لتخليد ذكره بعد أن مات بتقيل . وعلى حين كان غيره من الفلاسفة يشكون في حقيقة المادة ( أو في حقيقة اللامادة ) ، كان بيرون أكثر جرأة لأنه شك في إمكان المعرفة ، فهو يقول : كيف نستطيع أن نقطع بشيء أيا كان ؟ وبصفة خاصة كيف نستطيع معرفة حقيقة الأشياء ؟ ألسنا لا نزال نلاحظ ضروب التناقض في إدراكاتنا الحسية وفي آرائنا وعاداتنا ؟

إن ضروب التناقض هذه تثبت لنا استحالة المعرفة ، ولذلك فإننا إذا كنا صادقين مخلصين ، لا نقول : « إن هذا هو كذا » بل نقول : « إن هذا يجوز أن يكون كذا » ، ولا نقول : « إن هذا حق » ، بل نقول : « إن هذا يجوز أن يكون حقاً »<sup>(٧)</sup> . وهذا التوقف عن الحكم (acatalēpsia, epochē) كان من شأنه أن يورث حالا من عدم القابلية للتأثر ataraxia ، أعنى سكينته كاملة في النفس وتحرراً من العاطفة apatheia وضرباً من عدم المبالاة adiaphoria بالأشياء الخارجية وعدم الاكتراث للذة والألم . والحق أن مذهب بيرون كان ضرباً من الطمأنينة النفسية .

لم ينشئ بيرون مدرسة نظامية ، بل كان له من يعجب به ، أمثال تيمون ، كما أنه أثر في أشخاص آخرين غير كثيرين ، مثل أركيسيلوس<sup>(٨)</sup> ( ٣١٥ - ٢٤٠ ق . م . تقريباً ) ، وهو مؤسس الأكاديمية الوسطى ، ومثل كارنياديس ( ٢١٣ - ١٢٩ ق . م . )<sup>(٩)</sup> ، مؤسس الأكاديمية الجديدة ، وأينيسيديموس<sup>(١٠)</sup> وكان في أيام شيشرون ( النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد ) أو بعد ذلك ، ومثل سكستوس ( في النصف الثاني من القرن الثاني للميلاد ) . ومذهب بيرون ، شأنه شأن المذهب الكلبي ، أشبه بحال نفسية منه بمذهب فلسفي ، فلا يزال في كل مكان قوم تميل عقولهم إلى الشك ، غير أن مذهب الشك ، بالمعنى البيروني أو بغيره ، إنما يكون دائماً محدوداً ونسبياً ، فليس من أحد يشك في كل شيء أو يؤمن بكل شيء . وهذه النزعة البيرونية قد أبان عنها مونتاني بعبارته التي كانت شعاره ، وهي قوله : ماذا أعرف ؟ وعبر عنها لاجرانج ، إذ كان يجيب بعبارة أثيرة عنده ، وهي قوله : « لا أدري » . ومن يشتغل بالعلم لا يستطيع أن ينتج عملاً طيباً إن لم يكبح خياله على الدوام بلجام من مذهب الشك أو مذهب اللاأدرية .

#### اليوهيميرية Euhemerism

حوالي هذا الوقت تبلورت مجموعة أخرى من الآراء عند يوهيميروس الصقلي المسيحي الذي نبع في بلاط كساندروس Cassandros<sup>(١١)</sup> . ويقال إنه ركب

البحر متجها صوب الجنوب في البحر الأحمر حتى خرج إلى البحر العربي . ثم اجتازه إلى أن وصل إلى جزيرة من جزر الهند تسمى بانخايا Panchaia وفيها وجد نقوشا مقدسة . وسواء أكانت أسفاره ومكتشفاته حقيقية أم خيالية فإنه كتب وصفا لها عنوانه : Hiera anagraphē أو التاريخ المقدس ، وفيه أكد الأصل التاريخي للأساطير ، وكان ذلك محاولة لصبغ الأساطير ، أعنى ديانة اليونان . بصبغة عقلية .

ولا يكاد هذا يكون شيئا جديداً ، وإن جاز أن يكون كتاب يوهيميروس ( ولم تبق منه إلا شذرات ) أول ما نشر من هذه الآراء ، أو أول ما نشر وراج عند الجماهير . ويجوز أن يكون قد وقع في نفس يوهيميروس أثر للعادة المصرية التي أخذ بها اليونان ، وهي عادة تأليه الآدميين ؛ فالطبيب المصري أمحوتب كان يعتبر بطلا ، ثم صار إلهاً ، وهذا ما وقع للطبيب اليوناني أسكليبيوس . وهكذا كانت هناك كائنات في مكانة وسطى بين الناس والآلة ، وهم الأبطال . والحدود الفاصلة بين عامة الناس والأبطال من جهة وبين الأبطال والآلهة من جهة أخرى لم تكن دقيقة ، بل كان الانتقال من طائفة إلى الأخرى ممكناً . وإذا كان الأمر كذلك أفلا يكون طبيعياً إلى حد ما أن يفترض أن لكل الآلهة أصولاً إنسانية أو أنساباً إنسانية ؟ ألم تكن الأساطير اليونانية مشربة إلى حد الإسراف بنزعة التشبيه بالإنسان ؟ وكيف يستطيع الإنسان أن يتصور أن يكون الآلهة مخالفين لبنى الإنسان في الجوهر إذا كانت كل حكاية تحكى عن هؤلاء الآلهة تدل على أن لهم حسنات الآدميين ونواحي نقصهم ؟ إننا نستطيع أن نفترض مطمئنين أنه قبل يوهيميروس بزمان طويل اعتاد كل مشتغل بالعلم أن يعتبر الأساطير المتعلقة بالآلهة ضرباً من الشعر يكفي أن يكون محبوباً ، ولم يكن أحد من العلماء ينتظر من الناس أن يؤمنوا بهذه الأساطير . وإذن فلم يكن هناك بد من التماس حقيقة الدين ، لا في الأساطير ، بل في الشعائر والأعياد التي كان اليونان باحتفالهم بها يرضون حاجتهم من محبة الجمال والسمو ، ويعبرون عن شعورهم بالأسرار

الإلهية ، ويعربون عن أخوتهم الروحية . ولكن الاحتفال بهذه الأعياد كان لسوء الحظ مشجعاً على الخداع والغش من جانب رجال الدين ، وكان لابد أن يثير هذا الخداع من النقد الكثير مما إثارتها الأساطير نفسها .

وكان رجال المدرسة البرقاوية التي أسسها أريستوبوس البرقاوى ، أحد تلامذة سقراط ، يدعون إلى هذا النقد الموجه لرجال الدين<sup>(١٢)</sup> ؛ وكانت فلسفة أريستوبوس تنزع نزعة مذهب اللذة ، كما تنزع نزعة عقلية . أما تعليم هذه الفلسفة فقد واصلته أريتي Arete ابنة أريستوبوس ، كما واصله ابنها أريستوبوس الأصغر ( وهو الملقب : بالذى علمته أمه ) وأفراد آخرون قليلون ، مثل انتيباتر البرقاوى وتيودوروس الملحد وهيجسياس وانيكيريس الأصغر . ويجوز أن يكون يوهيميروس قد تأثر بالمدرسة البرقاوية ، ولكن لاسبيل إلى إقامة الدليل على ذلك ، كما لاجاجة إلى افتراضه ، إذ كان المذهب العقلي ملائماً لبعض اليونانيين ، كما كان التعلق بالخرافات طبيعياً عند كثيرين غيرهم .

وقد أعيد بيان مذهب يوهيميروس فى اللاتينية على يد إينوس ( النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد ) ، وفى اليونانية على يد ديودوروس الصقلى ( فى النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلاد ) ، كما انتفع به النصرارى الأوائل فى محاربتهم للوثنية . وهذه ناحية من نواح كثيرة للحرب الخالدة بين العقل والإيمان بالخرافات .

حديثه أبيقوروس Epicuros<sup>(١٣)</sup>

أبيقورس الساموسى :

حاولنا أن نقدم لقرائنا فكرة ما عن عظمة ديموكريتوس الأبديرى (ص ١٠٤ - ١٠٦ ج ٢) ، وهو من أتقى وأمجده الشخصيات التى يفخر بها النصف الثانى من القرن الخامس قبل الميلاد . وكانت بلاد اليونان فى ذلك الزمان طافحة بصروب العبقرية ، إلى حد أن بعضها ضاع أو عمره النسيان . وقد أغفل ذكر ديموكريتوس أثناء

الشطرن الأكبر من القرن الرابع ، فلم يذكره أفلاطون قط ، وأشار إليه أرسطو مرات كثيرة ، ولكن لينتقده فحسب . غير أنه لحسن الحظ بعثت فلسفته . وإن لم تبعث شخصيته . في الربع الأخير من ذلك القرن على يد نبي جديد ، هو أبيقورس .

كان أبيقورس (٣٤١ - ٢٧٠ ق . م .) سليل أسرة من أشرف أثينا ، ولكن أباه نيوكليس كان قد هاجر إلى جزيرة ساموس ؛ والراجح أن أبيقورس ولد في هذه الجزيرة ، أما الذي لاشك فيه فهو أنه قد تعلم ، فيها ؛ ونضج عقله مبكرا ، فأولع بدراسة الفلسفة وهو في الرابعة عشرة . ولما ذهب إلى أثينا بعد أربع سنوات كان قد حصل قسطا طيبا من العلم ؛ ولاشك أن ذهابه إليها كان بقصد اجتياز امتحان الدراسات الوطنية الذي يخوله أن يقيد ضمن فتيان أرض آبائه . وأثناء زيارته لأثينا (٣٢٣ ق . م .) أمر پرديكاس Perdicas الوصي على أبناء الإسكندر ، والقائد المستبد في المدينة - بإكراه المستعمرين الأثينيين المقيمين في جزيرة ساموس على مغادرة هذه الجزيرة ، وعلى هذا لم يعد أبيقورس إلى جزيرة ساموس ، بل تنقل بأسرته في الساحل الآسيوي ، وأقام فترات قصيرة في أماكن شتى ، وخصوصا في المدينتين الأيونيتين كولوفون Colophon وتيوس Teos ( وليجتهد القارئ في أن يتصور طائفة من الأثينيين الذين نبت بهم الأرض ، فأصبحوا لاجئين لا وطن "D.P.'s" \* لهم ، ينتقلون من مكان إلى مكان ) . وفي مدينة تيوس تلقى أبيقورس شيثامن العلم عن نوسيفانيس Nausiphanes<sup>(١٤)</sup> وكان يشرح فلسفة ديموكريتوس وفي سن الثلاثين ( سنة ٣١١ ق . م .) استقر في مدينة ميتيليني Mitylene ، وبدأ حياته الخاصة فيلسوفا مستقلا . ولا بد أن تأثيره ، حتى في ذلك الوقت ، كان كبيرا ، ذلك أن إخوته الثلاثة<sup>(١٥)</sup> كانوا من بين تلاميذه ؛ وهذا الأمر النادر يشهد بطيب جوهره لا بمقدرته على التأثير والإقناع فحسب . وبعد حين انتقلت المدرسة الجديد إلى مدينة لامبساكوس على الشاطئ الآسيوي لمضيق الدردنيل ، وهناك اجتذب أبيقورس تلاميذ

\* هذان الحرفان اختصارا لكلمتي Displaced Persons الذين أجلاوا عن أوطانهم = اللاجئون بالمعنى الحديث . ( المترجم )

آخرين اتبعوا مذهبه ، مثل مترودورس Metrodoros وكولوتيس Colotes  
 وپوليانيوس Polyainos . وايدوميونيوس Idomeneus وليونتيوس Leonteus  
 وزوجته تيميستا Themista<sup>(١٦)</sup> .

وكان النجاح الذي أحرزه أبيقورس حتى ذلك الحين سببا في انتقاله بمدرسته  
 إلى أثينا : ففي هذه المدينة دون غيرها كان يتسنى للمدرسة فلسفية جديدة أن  
 يتولد تأثيرها على النحو الكامل . هكذا رجع أبيقورس إلى موطنه الأصلي في سنة  
 ٣٠٧ ق. م . ، وذلك أثناء حكم الطاغية ديمتريوس بوليوركيتيس ملك مقدونيا  
 Poliorctes واشترى أبيقورس بيتا وحديقة<sup>(١٧)</sup> في مليتا Melita ( بين المدينة  
 وميناء بيرايوس ) وقضى بقية عمره هناك . وكانت نحو من سبع وثلاثين سنة .  
 وقد استطاع أن يبدأ بدءا حسنا ، كما يبدأ أى أستاذ معترف بفضله ، وذلك  
 لأن كثيرا من تلاميذه ، ومنهم أسرته نفسها . جاءوا معه . ولم يلبث أن جذب  
 إليه تلاميذ جدد من بينهم هرمارخوس . من ميتلني . الذي قدر له أن يصير  
 خليفة له ، وبيتوكليس وتيموكراتيس أخوة مترودورس . وقبل بعض الأرقاء في  
 المدرسة ، مثل ميس Mys وقد أعنته أبيقورس — كما قبل بعض النساء ، بل  
 بعض البغايا ، مثل ليونتيون وتد صارت فيما بعد زوجة مترودورس .

وكان التعليم في « حديقة أبيقورس » بريئا من التكلف ، كما كانت الحياة  
 فيها بسيطة أخوية إلى أكبر حد . لكن وجود نساء فيها لم يلبث أن صار سببا  
 في التحدث عنها بالسوء . كما كان نجاحها سببا في إثارة الغيرة . وزعم بعض  
 خصومها أن ما فيها يجرح إحساسهم . وإذن فإن السمعة السيئة التي تلحق بمن  
 يسمى « أبيقوريا » كانت لاصقة بالمدرسة الأبيقورية في مليتا قبل نهاية القرن  
 الرابع قبل الميلاد .

وكان من شأن هذه الإرجافات بالمدرسة الأبيقورية أن زادت من ولاء  
 التلاميذ لأستاذهم . فاستمرت الحياة بينهم حياة مودة وبساطة سنين كثيرة .  
 ومات أبيقورس . وهو في سن السبعين ، وأوصى بالبيت والحديقة إلى هرمارخوس

obeikandi.com

obeikandi.com

على أن مذهب أبيقورس كان أكثر من مجرد مذهب ذرى . ونستطيع أن نقول إن المذهب الذرى كان لب الطبيعيات فى الفلسفة الأبيقورية ، وقد عدله صاحبه لكى يقلل من حدة التصادم بين الذرات . ولكى يدع مجالاً لقدر أدنى من الوضوح والتحرر .

ومن آرائه الكبرى أن اللذة هى الخير الوحيد . غير أن تصورهِ للذة كان بعيداً كل البعد من مذهب اللذة فى صورتها الفظة ، لأن نوع اللذة الذى كان يعنيه لا يمكن أن يناله الإنسان إلا بمباشرة كثير من الفضائل ، كالحكمة والعدل وقمع كثير من الشهوات ، وكان يقتضى العفة . إن لم نقل يقتضى الزهد . وهكذا أعطى أبيقورس معنى جديداً للحكمة اليونانية القديمة : « لا تُفَرط » .

وتم رأى آخر لأبيقورس كثيراً ما فهمه الناس على غير وجهه ، وهو الذى يمكن أن يسمى مذهبا حسيّاً . ذلك أنه كان يستنكر الخيالات الفيثاجورية والأفلاطونية ، فذهب إلى أن معرفتنا كلها مستمدة من حواسنا . على أن العلم التجريبي لم يكده يكون له وجود فى زمان أبيقورس . وإلا فربما كان يقول إن معرفتنا يجب أن يكون لها أساس تجريبي ؛ وهو وإن لم يستطع أن يذهب إلى هذا الحد . فقد ذهب إلى أن الإنسان يجب أن تكون لديه بيئة حسية من نوع ما ، وإلى أن الألفاظ يجب أن تقابلها أشياء محسوسة . ولا شك أنه فى مذهبه الذرى قاد ذهب إلى أبعد مما يمكن تمحيصه بالتجربة ، بل إن مذهبه لم يكن نظرية يمكن تطبيقها بالمعنى الحديث . ذلك لأنه كان فيلسوفاً دون أن يكون عالماً .

وكان أبيقورس أخلاقياً قبل كل شئ ، يحاول أن يشق للفضيلة والسعادة طريقاً جديداً ؛ فعنده أن الفضيلة تقتضى الحرية . وكانت حرية الروح الإنسانية أمراً جوهرياً فى نظر أبيقورس . حتى إنه اضطر إلى تعديل مذهبه الذرى الأساسى لكى يجعلها ممكنة . وقوله بعدم التزام الذرات قاعدة ثابتة جعل هناك مجالاً للصدفة والحرية فى أشياء من شأنها أن تكون مادية إلى أقصى حد . وهذا العنصر من الصدفة والحرية يزداد — تبعاً لزيادة الصبغة الروحانية ، فى المادة — حتى يبلغ ذروته فى النفس الإنسانية .

ولابد في تحصيل السعادة من تعود ضبط النفس وكفها عن هواها .  
 أعنى أن السعادة يوصل إليها على نحو سلمي ، وكان « أستاذ الحديقة » ينصح تلاميذه ألا يتزوجوا وألا ينجبوا أبناء ، وألا يلفتوا انتباه الناس إليهم . وإنما شنع الناس على مذهب اللذة الأبيقورى لأن أعداءه تخيلوا أنه يطلب اللذة ( لاسيما اللذات الحسية ، لأنهم هم أنفسهم لم يستطيعوا أن يتصوروا لذات غيرها ) ، على حين كان مذهب أبيقورس في الحقيقة يرمى إلى تخليص الإنسان نفسه من الألم والاضطراب . وكان الأبيقوريون يحاولون أن يطرحوا عن أنفسهم أنواع الخوف ، كالخوف من الموت أو الفقر ، وأن يبلغوا الحال التي يكون فيها الإنسان بحيث لا يخرجها عن سكينته شئ ؛ كانوا يميلون إلى الانسحاب من الحياة ، ويستطيع الإنسان أن يتهمهم بأنهم من أنصار روح الانهزام والخور . والحقيقة أن روحهم في جملتهم كانت تنقصها البطولة ، لكنها لم تكن روحا مضادة للأخلاق . وقد يبدو أنهم كانوا أنانيين ، ولكن ينبغي ألا ننسى أنهم كانوا يعيشون في أزمان مملوءة بالمخاطر ، الطغيان فيها أكثر شيوعا من العدل ، وكل شئ قد بلغ من التزعزع أكثر مما بلغه في أى وقت مضى ، فكان الأحرز للإنسان أن يخفى أحواله بدل أن يجلب لنفسه الحسد والأذى<sup>(٢١)</sup> .

### محادثة أبيقورس لرجال الدين والخرافة :

والركن الأكبر في فلسفة أبيقورس في الحياة ، الركن الذى خلق له ولمذهبه خصوما كثيرين ألداء ، هو مناهضته الخرافات . ولقد كررنا من قبل أن الخرافات كانت قد طغت في العالم اليونانى حتى جاوزت الحد ، وكان الهيام بالسحر والخرافق موجودا منذ أقدم العصور ( بدليل ما كان عند اليونان في القديم من شعائر باطنية سرية وأساطير وتداوى بالمخلفات والآثار المقدسة ) . ثم جاءت الحروب بما فيها من البلايا ومن قلة الطمأنينة السياسية والاقتصادية ، فجعلت هذا الهيام أكثر استشرافا ، وزادت أنواع البؤس أثناء الحروب ، حتى بلغت ذروة جديدة أعلى من ذى قبل ، وخصوصا بعد موت الإسكندر وانحلال تاريخ العلم - ثالث

obeykandi.com

obeikandi.com

الأمر هو الذى ينكر ما يعبده العامة من آلهة ، بل هو الذى يصف الآلهة بما يعتقد العامة فى حقها ؛ ذلك أن أقوال العامة عن الآلهة ليست من قبيل التصورات الصحيحة التى تتبادر إلى الذهن ولا ينقصها إلا سند من المعرفة ، بل هى مفتريات كاذبة . وهذا هو السبب فى أن أعظم النقم تنزل بالأشرار ، وأن أعظم النعم تحل بالأخيار ، من أيدى الآلهة ، لأن الآلهة دائماً يميلون إلى ما لهم هم أنفسهم من الصفات الجميلة ، وراضون عن يشبههم من الناس ، وينبذون كل ما لا يشاكلهم كما ينبذون الشيء الغريب عن طبيعتهم (٢٤) .

والدليل على وجود الله مافى الإنسان من خيرية (وعندى أن هذا لا يزال أحسن دليل) . فأبيقورس لم يحارب الدين البرئ من الباطل ، وإنما كان يكره الدين الذى وطد أركانه الأفلاطونيون والأرسقراطيون ، وهو ذلك النوع من الدين الذى كانت تحبذ « الطبقة العليا من الناس » ابتغاء مصلحة الطبقات الدنيا ، وكان ممتزجا ، لا بخرافات وضعية فحسب ، بل بقوة البوليس والجاسوسية والاضطهاد وأنكر أبيقورس فكرة العناية الإلهية التى كانت أئيرة عند الرواقين . بل أنكر فكرة الخلق ، أو هو على الأقل أنكر فكرة الخلق المتجدد ، فعنده أن الله خلق العالم ثم نفى يده منه وتركه يتطور تطوره الخاص . وقوانين الطبيعة لا يجوز الاعتداء عليها بأى ضرب من ضروب التعسف .

لقد كان أبيقورس أول من نادى بالخطر الاجتماعى للخرافات ، والحاجة الماسة لمحاربتها ، فلا يجوز أن يكذب على العامة كما كذب عليهم أفلاطون ، بل يجب أن يقال لهم الحق ؛ وإذا لم يكونوا مثقفين ثقافة كافية لإدراك ذلك فالواجب أن يتقفوا ، فالحق ولا شئ سواه هو الذى يجعلهم أحرارا (٢٥) .

فأبيقورس يمثل المذهب الحر والمذهب العقلى ، فى مقابل روح المحافظة وتعمد معارضة التنوير والإصلاح عند أفلاطون . على أن مذهب أبيقورس العقلى لم يكن مطلقا ، بل نسبيا ، وأى مذهب عقلى ليس كذلك ؟

وفلسفة أبيقورس مملوءة بالمفارقات ، فقد لطف من مذهبه الذرى قوله بعدم

التزام الذرات قانوناً ثابتاً ، وبعنصر التلقائية في حركاتها ، كما لطف من مذهبه المادى اعترافه بالنفس والآلهة . ولكن أكبر مفارقة في فلسفته هي ما انطوت عليه من الرغبة في شن حرب شعواء على الخرافات ، لأن ذلك لم يكن ليتمشى على الإطلاق مع ما كانت ترمى إليه فلسفته من جعل الناس بمنأى عن الألم والعناء . فلو أن الأبيقوريين كانوا يريدون أن يجرؤوا على أنفسهم عناء أكثر مما عندهم لما استطاعوا أن يجدوا شيئاً يجلب عليهم البلاء أكثر من محاربتهم الأكاذيب والخرافات الاجتماعية . وإن اختيارهم لقضية هي أكثر القضايا جلباً للمتاعب والمخاطر ، وتصديهم للدفاع عنها ، دليل على تناقضهم البالغ الحد وعلى عظمهم الخلقية . وأبيقورس لم يكن عدواً للدين ، وليس صحيحاً أنه كان عدواً للعلم ؛ وإنما كانت عنايته بعلم الأخلاق أكثر من عنايته بالبحث عن العلم الخالص . غير أنه أدرك أن واجبنا الأول هو أن نعرف الحقيقة ، أو بالأحرى أن نعرف الحقيقة لكي نستطيع أن نؤدى واجبنا . أما معارضته لما يمكن أن يسمى « العلم الخالص » فسببها ما كان قد شاب صفاء العلم من تزييف كثير ، فكان أبيقورس يحتقر المنطق بسبب ضلالات أصحاب الجدل ، وكان لا يثق في الرياضيات بسبب « علم العدد » الفيثاجورى وعلم الهندسة الأفلاطونى وقد أنكر خاصة تأليه الكواكب لأن ذلك كان يحط من علم الفلك ومن الدين على السواء . ولا شك أن الميل إلى خلط العلم الخالص بالسحر الأفلاطونى كان من شأنه أن يجعل أبيقورس على حق في نيذه لكليهما على السواء . ولم يكن بدّ من أن تؤول محاربتة الخرافات والمذهب اللاعقلى إلى حرب على العلوم والديانات الزائفة .

وبعد كل هذا لا بد من التسليم بأن أبيقورس لم يكن عنده شئ من حب الاستطلاع العلمى ، ولم يكن عنده باعث يحثه على اكتشاف الحقيقة ، وهذا يفسر لنا السر في أن أرسطو لم يعجبه . ومن الجائز أن يكون أبيقورس قد نظر إلى كل الحكايات التى جمعها أرسطو في كتبه الحيوانية نظرته إلى أشياء فارغة لا طائل وراءها ؛ ويجوز أيضا أنه كان يقول : مالنا والعناية بتربية الأسماك أو المزاجية بين الحلزون؟ فلنصرف كل اهتمامنا إذن إلى المسائل التى تعنى الإنسان! ونحن

obeyikandi.com

obeikandi.com

پوليانيوس في شهر ميتاجايتنيون ، كما كنت أفعل حتى الآن (٢٨) .

وليرع كل من أمينوماخوس ، وتيموكراتيس ، أبيقورس بن مترودورس ، وأيضا ابن يوليانيوس ، ما دامتا بتعلمان ويعيشان مع هرمارخوس . وليقوما أيضا بالإتفاق على ابنة مترودورس ما دامت مؤتمرة بأمر هرمارخوس ومطبعة له ؛ وإذا بلغت رشدها فليزوجها من زوج يختاره هرمارخوس من بين أعضاء المدرسة ، وليعطهما أمينوماخوس بالتشاور مع هرمارخوس من ضروب الدخل التي تؤول إلى ، ما يريانه كافيا لمعيشتهما عيشة حسنة ، كل عام . وليجعلها هرمارخوس وصياً على الأموال كأنفسهما ، بحيث لا يعمل شيء إلا بالاتفاق معه ، لأنه شاب معي في الفلسفة وتركته على رأس المدرسة . وإذا بلغت الفتاة سن الرشد فليقم أمينوماخوس وتيموكراتيس بالإتفاق على جهازها ، وذلك بأن يأخذوا من الممتلكات بقدر ما تسمح به الظروف بموافقة هرمارخوس ، وليقوما بالإتفاق على نيكانور ، كما كنت أفعل حتى الآن ، بحيث لا يصبح أحد من أعضاء المدرسة ، الذين خدموني في حياتي الخاصة ، وأظهروا لي محبتهم من كل وجه ، واختاروا أن يشيخوا معي في المدرسة ، في حاجة إلى ضروريات الحياة ، وذلك بقدر ما يكفي ملكي . ولتعط كل كتيبي إلى هرمارخوس .

وإذا حدث لهرمارخوس قبل أن يكبر أبناء مترودورس فليعطهم أمينوماخوس وتيموكراتيس من الأموال التي أوصيت بها ما يكفي لحاجاتهم المتنوعة ، ما داموا مطيعين . وليتعهدوا بقيمة الأمور طبقاً لتعلياتي ، ولينفذ كل شيء بحسب وسعهما . وإني أعتق من أرقائي ميس ونكياس وليكون ، وأمنح فيديريون حريتها « (٢٩) .

وخلف هرمارخوس أبيقورس سنة ٢٧٠ ق. م . ، ثم خلفه پوليستراتوس ، ثم ديونيسيوس ، ثم بازيلابديس . ومن اشتهر من رؤساء المدرسة أبولودورس ، وسمى طاغية الحديقة ، وقد كتب أكثر من أربعمئة كتاب ، والبطلميوسان الإسكندر يان اللذان كان أحدهما أسود والآخر أبيض (٣٠) ، وزينون الصيداوي

تلميذ أبوللودورس ، وكان مؤلفا مكثرا ، وديمترىوس وكان يسمى اللاكرونى \*  
 وديوجنيس الطرسوسى وقد جمع المحاضرات المختارة ، وأوريون ، وآخرون يسميهم  
 الأبيقوريون الحتميون سوفسطائيين<sup>(٣١)</sup>.

وقد ذكرنا هذه الأسماء للتدليل على بقاء المدرسة الأبيقورية وعلى حيويتها .  
 وزينون الصيداوى ينتقل بنا إلى القرن الأول قبل الميلاد ، لأن شيشرون سمعه فى  
 أثينا ، ولا بد أن ذلك كان فى عام ٧٩ ق . م . ولكن شيشرون كان قد تعرف  
 بالمذهب الأبيقورى قبل أن يذهب إلى بلاد اليونان ، لأنه استمع إلى محاضرات  
 فيدروس ( من ١٤٠ إلى ٧٠ ق . م . ) ، وذلك فى روما قبل عام ٨٨ ق . م .<sup>(٣٢)</sup>  
 وكان فى أيام شيشرون أبيقورى آخر هو فيلوديموس الجدرى . وأعظم الأبيقوريين  
 جميعاً لوكرىتيوس فى النصف الأول من القرن الأول ق . م . ، ولسنا بحاجة  
 إلى أن نقول عنه أكثر من ذلك ، وكان يرى أن أبيقورس أشبه بإله  
 (راجع أول كتابه المسمى فى طبيعة الأشياء)<sup>(٣٣)</sup> . ولكن هذا الرأى لم يقدر  
 له أن يشيع ويروج فيما بعد ، وإن كان قد شارك لوكرىتيوس فيه أشخاص  
 شواذ ، مثل لوكيان الساموساتى Lucian of Samosata وصديقه كلوسوس<sup>(٣٤)</sup>  
 وكل منهما كان يعتبر أبيقورس بطلا إلهيا ومحسنا للإنسانية .

نقول إن هذا الرأى لم يقدر له أن يشيع ويروج ، ولكن مجد أبيقورس  
 ومجد لوكرىتيرس من بعده كان فى محاربتهما للخرافات ، ومثل هذه الحرب  
 لا تكسب أحدا . ولا يمكن أن تكسبه أبدا ، محبة عامة للناس . بل إنه لما قضى  
 على الخرافات آخر الأمر لم يكن ذلك إلا لأنه قد حلت محلها خرافات أخرى ،  
 وذلك كما نفتلح الأعشاب التى تكون فى حدائقنا ، فهى تترك المجال لأعشاب  
 أخرى مثلها . وبرغم جهود أبيقورس لم تنقص الخرافات الوثنية ، بل على العكس  
 كان من شأن قلة الاستقرار السياسى والاقتصادى أن تزيد منها . ثم أخذ أحسن  
 ما كان فى الديانة القديمة يتدهور شيئا فشيئا . كما أخذ الفساد يدب فيه ،

٥ نسبة إلى لاكون ، إحدى أراضى بلاد اليونان ، جنوبي شرق البيلوبونيز ، وكان أهلها  
 يؤثرون الكلام الموجز الدقيق الذى لا يخلو من التواء . (المترجم)

obekandi.com

obeikandi.com

John Dalton ( ١٧٦٦ - ١٨٤٤ ) .

ولو تتبعنا ما طرأ بعد ذلك على المذهب الذري في ثوبه العلمي من تطورات .  
لذهب بنا البحث بعيداً عن ميدان كلامنا . ولكن ليسمح لنا القارئ أن نثبت  
هنا هذه الملاحظات : استغرقت إقامة المذهب الذري على أساس تجريبي  
سليم كل القرن التاسع عشر تقريباً . واقتضى ذلك قدراً كبيراً من البحث  
الكيفي . حتى إذا أصبح النجاح في تناول البصر ، أخذ بعض رجال العلم  
وبعض الفلاسفة - ممن كانوا يسعون إلى الوصول لفهم الأشياء فهما أعمق -  
ينكرون المذهب الذري ويعتبرونه ضرباً من الوهم الخادع . ونشرت على الناس  
آراء معارضة لهذا المذهب ، كتبها رجال مثل إرنست ماخ Ernst Mach  
( ١٨٣٨ - ١٩١٦ )<sup>(٤١)</sup> ، وبير دوهم Pierre Duhem ( ١٨٦١ - ١٩١٦ ) .  
بل نشرها عالم من المشتغلين بعلم الكيمياء العملية مثل فيلهلم أوستفالد Wilhelm  
Ostwald ( ١٨٥٣ - ١٩٣٢ ) . ولكن هؤلاء الرجال كانوا يناضلون كما  
يناضل جنود المؤخرة في الجيش ، وذلك في الوقت الذي لم يعد فيه المذهب الذري  
مجرد فرض علمي ، بل صارت الذرات فيه تحصى وتوزن ، وإن كانت لم تعد تعتبر  
ذرات بالمعنى الحرفي لكلمة « ذرة » لأنها أصبحت ترد إلى عناصر أخرى أصغر  
من الذرات إلى حد لا يكاد يصدقه الإنسان .

وإذا أردنا أن نعود إلى أبيقورس ، فلا بد أن نكرر القول بأن رفض المذهب  
الذري من جانب أوستفالد وغيره ، كان أكثر تمشياً مع روح العلم بما لا يقاس  
من قبول أبيقورس لذلك المذهب قبولا أعمى . وإن كشف أبيقورس ، أو بعبارة  
أصح إعادة كشفه ، للمذهب الذري لم يكن عملاً علمياً قام به ومؤرخ العلم يول  
أبيقورس ما يستحقه من التقدير من أجل فلسفته في جملتها ، وبخاصته من أجل  
مخاربه للخرافة ، أكثر من تقديره من أجل مذهبه الذري . والحق أن العلم لا يمكن  
أن يزدهر في الظلام ؛ والكي يجعل الإنسان نموه ممكناً لا بد له أن يكون مستعداً  
لمخاربة السحرة والخرافة عند كل خطورة يخطر بها . وهذا ما فعله أبيقورس أو ما  
حاول أن يفعله .

## شخصية أبيقورس ، ووفاته :

وأحسن ما نختم به هذا الفصل أن نعطي القارئ فكرة عن شخصية أبيقورس . ومن الخير أن يكون الإنسان قادراً على ذلك . وخصوصاً إذا ذكرنا أننا لانكاد نعرف عن شخصيات معظم رجال العلم الكبار في العصر القديم ، فعظمتهم أشبه بالصور المجردة . أما أبيقورس فهو شخصية حية . وإنه لجميل أن نتخيل . أبيقورس ماشياً مع تلاميذه في حديقة مليئة ، يتحدث إليهم ويتذاكر معهم . وقد كان لديه من الفسحة في الوقت ما يمكنه من أن يكتب كثيراً ، ولكن يبدو أنه لم يكن يلقي محاضرات منتظمة ، وهو لم يكن محاضراً . وإنما كان معلماً بالمعنى الحقيقي . شديد الاهتمام بتلاميذه ، وهو لم ينشئ مجرد مدرسة ، بل أنشأ جماعة يؤلف بين أعضائها الإخاء . ولم يلتف حوله رجال فحسب ، بل نساء وأطفال أيضاً . وهذا هو نص خطاب منه إلى أحد أبنائه :

« وصلنا إلى لامبساكوس في سلام وعافية . بيتوكليس . وهرمارخوس . وكتيسيوس . وأنا ، وهناك وجدنا تيممستا وأحبابنا الآخرين بخير جميعاً . وأرجو أن تكون أنت أيضاً وأملك بخير . وأن تكون دائماً مطيعاً لأبيك وأملك كما هو دأبك . واسمح لي أن أقول لك إن السبب في محبتي ومحبتنا جميعاً لك هو أنك دائماً مطيع لهما » (٤١) .

هذه الوثيقة فريدة في الأدب القديم . ولأبيقورس خطابات أخرى تتضمن ما يشبه ذلك من دلائل البر بوالديه وإخوته وتلاميذه ، بل البر بأرقائه . وعلى عكس ما كان يتخيله خصوم أبيقورس من أنه كان شيطاناً فاجراً ، فإنه كان إنساناً بسيطاً ودوداً . محباً للحياة والناس . وكان أسلوبه في معيشتة معتدلاً . وقد أدرك الحاجة إلى الأعياد في مناسبات معينة . ذلك لكي يكسر من حدة توالي الأيام على وتيرة واحدة ، ويجعل الفرق في تواليها بينا ، فجعل اليوم العشرين من كل شهر مخصصاً لعيد صار بعد وفاته يوم ذكرى له ولتروودورس . ويؤسفنا أننا لانعلم كيف كان الإنسان يقبل عضواً في الجماعة الأبيقورية

المتأخية ؛ ولا بد أن السماح للإنسان بأن يدخل الحديقة الأبيقورية ويتحدث مع الإخوان والأخوات كان يعتبر نعمة ، نعمة لا يشوبها شيء من السخف وليس فيها إلا المحبة والعقل .

أما ما لايسرّ في شخصية أبيقورس (وهذا يسوعنى كثيرا جداً) فهو حكمه على أساتذته وعلى غيره من الفلاسفة حكماً بعيداً كل البعد عن عرفان الفضل والجميل . كان يسى أستاذه نوسيفانيس السمكة الهلامية (٤٢) . وقد استعمل ألقاباً أخرى قبيحة في وصف هيراكلييتوس (المخلط) وديموكريتوس (الغف) وأرسطو (الماجن) ، ورفض أن يعبر لويكيبيوس أى اعتبار . على أنه ربما تنكر العبقري لأساتذته ، لأنه لا يدرك مقدار ما لم عليه من فضل ، وربما أنساه إياهم سورة تحمسه ، وقد يكون مخلصاً في ذلك ، لكن قلة الاعتراف بالفضل لصاحب الفضل نقص في الكياسة . وهذا ما يجيرنى من أبيقورس أكبر الحيرة ، لأن غمط الناس حقهم والحط من قدرة ذوى القديركاد يكون دائماً أمانة من أمارات الضعة ، وأبيقورس كان رجلاً عظيماً جداً ، فكيف أمكن أن يعمى عن عظمة أسلافه وفضل أساتذته ؟

وكما نعرف عن حياة أبيقورس أكثر مما نعرف عن حياة غيره من فلاسفة اليونان ، فإننا نعرف عن ظروف موته أكثر مما نعرف عن ظروف موتهم . نعم نحن نعرف ظروف موت سقراط معرفة وافية ، لأنه أعدم إعداماً على رءوس الشهداء ، أما غيره من الفلاسفة الذين ماتوا موتاً طبيعياً فعلمنا بظروف موتهم أقل وضوحاً . وفيما يختص بمرض أبيقورس الأخير يقدم لنا ديوجنيس اللاثرسي بياناً دقيقاً :  
يقول :

«مات أبيقورس في السنة الثانية للاحتفال السابع والعشرين بعد المائة للألعاب الأولمبية ( = ٢٧١ - ٢٧٠ ق . م . ) ، في أيام رياسة بيتاراتوس ، وكان إذ ذاك في سن الثانية والسبعين ، وتولى المدرسة بعده هرمارخوس بن أجيورتوس من أهل ميتيلنى . ومات أبيقورس من حصاة في الكلية ، بعد علة دامت أربعة عشر يوماً . هذا ما يحدثنا به هرمارخوس

في خطاباته . ويحكى هرميوس أنه دخل حماما برونزيا فاتر الماء ،  
وطلب نبينا صرفا فتجرعه ، وبعد أن أوصى أصحابه أن يظلوا ذاكرين  
آراءه لفظ النفس الأخير » .

وكتب أبيقورس في اليوم الأخير من حياته خطابا إلى صديقه أيدومينيوس  
يتضمن حكاية أخرى لآلامه وصورة أخيرة للطفه ، لا يمكن أن تنسى .  
يقول :

في هذا اليوم الذي أشعر فيه بأعظم السعادة ، والذي هو أيضا اليوم الأخير  
من أيام حياتي ، أكتب إليك هذا ، إن الآلام التي أعانيها من انحصار البول ،  
والدوستاريا ، قد بلغت من الشدة حداً لا مزيد له ، ومع هذه الآلام كلها ،  
أحس بسعادة روحية إذا تذكرت محادثاتنا فيما مضى . وإني أحب منك أن  
ترعى أبناء مترودورس ، بحيث يكون ذلك منك طول حياتك على مدى  
محبتك لي ولللسفة (٤٣) .

#### الرواقية THE STOA :

لا يمكن معرفة ميلاد المذهب الرواقى على وجه التحديد ، لأننا لانعرف  
متى ولد مؤسسه زينون . فإذا كان ميلاده قد تأخر حتى سنة ٣٣٦ ق . م . ،  
فإن المذهب الرواقى لا يكاد يكون من ثمرات القرن الرابع قبل الميلاد، أو هو  
يرجع إلى السنوات الأخيرة منه. ولكن ميلاد زينون حدثت له سنون سابقة  
على ذلك ، فجعل في سنة ٣٤٨ مثلا ، بل وفي سنة ٣٥٦ . وعلى هذا يكون  
زينون معاصرا لأبيقورس وأسن منه . على أن ثم سببا آخر أهم من ذلك يدعونا  
إلى الكلام عن المذهب الرواقى في هذا الفصل ، ذلك أنه من ثمرات عصر  
الإسكندر الأكبر ، ولا عبرة بالزمن الذى فيه اكتمل نموه .

#### زينون الكيتيونى Zenon of Cition

ولد زينون بن مناسياس في كيتيون . وزعم بعضهم أنه فينيقى الأصل ، وهذا  
محتمل ، فكيتيون أتى عليها زمن كانت فيه من جملة مستعمرات الفينيقين في

قبرص وربما كانت أقدم مستعمراتهم في هذه الجزيرة<sup>(٤٤)</sup>؛ أما أنه تأثر بمؤثرات فينيقية فأمر يقرب من اليقين. ثم ذهب إلى أثينا، وهو في سن الثامنة والعشرين، أو في سن الثلاثين. ودامت دراساته بها أكثر من عشرين عاماً، وربما كان ذلك قبل تأسيسه لمدرسته. وقد ظل على رأس هذه المدرسة ثمانية وخمسين عاماً. ومات وهو في سن الثامنة والتسعين (أو الثانية والسبعين؟)<sup>(٤٥)</sup>.

وظروف وصوله إلى أثينا تستحق أن تذكر. يقول ديجينيس اللائوسى: انكسرت به المركب في أثناء رحلة من فينيقية إلى بيراوس، وكانت معه حمولة من الأرجوان، فذهب إلى أثينا وجلس في دكان وراق، وكان إذ ذاك في سن الثلاثين، وأخذ يقرأ الكتاب الثاني من كتاب كسينوفون المسمى Memorabilia، فبلغ منه السرور أن سأل: «أين يوجد رجل مثل سقراط؟» وفي تلك اللحظة اتفق مرور كراتيس، فقال الوراق لزينون: «اتبع هذا الرجل! وأشار إلى كراتيس، ومنذ ذلك اليوم صار زينون تلميذاً لكراتيس وأظهر من وجوه أخرى استعداداً قوياً لفهم الفلسفة، وإن كان فيه قدر كبير من الحياء يحول دون تشربه صفاقة الكلبين. ورغبة في معالجة هذا النقص أعطاه كراتيس قدراً مملوئاً من حساء العدس ليحمله عبر الكيراميكوس<sup>٥</sup> وقد دفعه خجله إلى أن يحاول إخفاء القدر عن الأنظار، فلم يكن من كراتيس إلا أن ضرب القدر بعضى فكسره. ولما شرع زينون في الحرب، وحساء العدس يسيل على ساقه، قال له أستاذه: لماذا تجرى يا بنى الفينيقي؟ إنه لم تصبك مصيبة كبيرة!»<sup>(٤٦)</sup>.

هذه القصة تبعث على التفكير من وجوه شتى. فزينون إنما صار فيلسوفاً بسبب كارثة أفقرته، وقد قال فيما بعد: «لقد قمت برحلة رابحة لما انكسر المركب»<sup>(٤٧)</sup>. وهذا مما يمكن تصديقه دون حاجة إلى ما يضاف إليه. ومن جهة أخرى في تسمية كراتيس له «بالفينيقي الصغير» ما يؤكد القول بأنه كان فينيقي

<sup>٥</sup> في الأصل الإنجليزي ceramics ومعناها الفخار، وهي بشكلها اليوناني اسم ميدان عام في أثينا ولضاحية من ضواحيها كان يدفن فيها الجنود الذين يموتون في ميدان القتال.  
(المترجم)

الأصل . والنقطة الهامة هي أن زينون كان تلميذا لكراتيس الكلبي ، وبحسب الروايات القديمة كانت آراء زينون ذات صلة بآراء سقراط ، عن طريق انتستينس وديوجنيس وكراتيس . وهكذا اختلط المذهب الرواقى والمذهب الكلبي في البداية . ولا محل للشك على أية حال في أن عروق المذهب الرواقى تمتد إلى أصول كلية . إذ يمكن الكشف عن آثار من مذهب الكلبيين في كل كتب أهل الرواقى ، حتى في ذكريات ماركوس أوريليوس .

وكان لدى أثينا في آخر القرن الرابع قبل الميلاد أشياء كثيرة تستطيع أن تقدمها لرجل طموح من طراز زينون . وهو ، وإن كان قد لزم كراتيس الطبيي (الذى عاش إلى سنة ٢٨٥ ق . م . ) بنوع خاص ، فإنه أخذ عن غيره من الأساتذة في الأكاديمية وغيرها . وقد ذكر من بين أساتذته كزينوكراتيس ، وبوليمون ، من أساتذة الأكاديمية ، وستيلبون ، وديودورس ، من أساتذة المدرسة الميجارية<sup>(٤٨)</sup> . وكان بوليمون يؤذيه ويسخر منه قائلا له : « إنك تدخل خلسة من باب الخديقة وتسرق أفكارى وتكسوها ثوبا فينيقيا »<sup>(٤٩)</sup> . وليس المهم في الأمر هؤلاء الفلاسفة الذين تردد عليهم زينون في أثينا ، وإنما هو ذلك الاتجاه المعين الذى اتجهه عقله ؛ ولا شك هنا . كما لا شك بالنسبة إلى أبيقورس ، في أن منزع زينون في التفكير كان رد فعل مضاد للأكاديمية والليكيوم وهناك بون شاسع بينه وبين أبيقورس ، وهو يعود إلى أيام الشباب ، ففي حين كان أبيقورس يرجع إلى الوراثة ملتصقا بمذهب ديموكريتوس ، كان زينون متأثرا بهيراكليتوس ومعنى متابعة ديموكريتوس التزام المذهب العقلى ، أما هيراكليتوس فكان من الذين ينزعون إلى القول بالأمر الخفية . وهذه المؤثرات التى ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد تهرر إدخال كل من الأبيقوريين وزينون في هذا الجزء من كتابنا ، وكلا الفلاسفتين ، فلسفة أبيقورس وفلسفة زينون ، نشأتا وولدتا قبل نهاية القرن الرابع قبل الميلاد .

ويحكى ديوجنيس اللائرسى حكايات كثيرة خاصة بزينون ، ومع ذلك لا نراه بوضوح كما نرى أبيقورس . وفي بعض مميزاته التى يشير إليها ديوجنيس

ما يلفت النظر ، فهو يذكر مثلاً أنه كان أعوج العنق ، نحيفاً ، أقرب إلى الطول ، أسمر اللون ، وأنه كان مولعاً بأكل التين الأخضر وبحمامات الشمس<sup>(٥٠)</sup> . ومن الواضح إلى درجة لا بأس بها ، أن زينون كان معروفًا في أثينا ، وأن الأثينيين كانوا يحبونه ، ولندكر القرارين اللذين اقرعوا عليهما تقديراً له ، ودفنه في الكيراميكوس .

أما كيفية موته فكانت على هذا النحو : بينما كان خارجاً من المدرسة عشر فوقع وانكسرت أصبع قدمه . فضرب الأرض بجمع يده ، وهو يردد هذا السطر من الـ Noibe :

« إني آت ، إني آت »

« فلماذا تناديني ؟ »

ثم مات على الفور في مكانه وقد كف عن التنفس<sup>(٥١)</sup> .

العلم الرواقى والفلسفة الرواقية :

بدأ زينون يعلم فلسفته في أثينا ، في رواق سمي بالرواق ذى الرسوم ، لأنه كان قد زين بالرسوم حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد بريشة بوليغنونوس « محترع فن الرسم » ، من أهل تاسوس Thasos . وكان الشعراء قد اعتادوا أن يتخذوا من ذلك الرواق ملتمى لهم ، والراجح أنه كان مفتوحاً لكل من كانوا يريدون أن يجتمعوا فيه . ثم كان اتخاذ زينون له مكاناً يعلم فيه فلسفته سبباً في أن سميت مدرسته « بالرواق » ، وفي أن سمي أصحابه بالرواقيين .

ومن العسير أحياناً أن يميز الإنسان في الفلسفة الرواقية بين ما قاله زينون وبين ما أضيف بعد ذلك على يد كلياتيس Cleanthes وغيره<sup>(٥٢)</sup> . والذي يظهر لى أن زينون شرح أصول الآراء وأمهاها ، وأنه من غير شك مؤسس هذه الفلسفة ، وعلى مر القرون أدخلت عليها تغييرات كثيرة ، وإن لم تكن ذات بال . ويمكن في الجملة توضيح أقوال ماركوس أورابيلوس بذكر شواهد مما خلفه زينون من شفرات .

يقسم زينون الفلسفة ثلاثة أقسام كبرى : الطبيعيات ، والأخلاق ،

والمنطق ؛ والطبيعات عنده أساس المعرفة ، والمنطق أدواتها ، والأخلاق غايتها .  
ومنطق زينون مستمد من آراء انتستينس ، وديودورس كرونوس ، أعنى  
أنه مستمد من تلك الآراء التي سبق لإيها الكليون والمجاريون ، إلا أن هذا المنطق  
تطور تطوراً مستقلاً في اتجاهات شتى ؛ فأدى مثلاً إلى إحساس أعمق  
بالمسائل النحوية ، ويمكن القول بأن علم النحو اليوناني من وضع الرواقين إلى  
حد كبير . وقد واصل خريسيپوس عمل زينون في ميدان النحو ، ثم أكمله  
ديوجنيس البابل وكراتيس ، من أهل مالوس<sup>(٥٣)</sup> . وللمنطق فروع  
أخرى ، خطابية وجدلية . ونظرية المعرفة أيضاً عند الرواقين نظرية مبتكرة ،  
فكانوا يقولون إن المعرفة تنال مما ينطبع في أعضاء الحس ، وعلى الإنسان أن  
ينظر في انطباعات الحس نظر التأمل البصير حتى لا تجرفه « الخيالات »<sup>(٥٤)</sup> .  
أما الطبيعات الرواقية فكانت مزيجاً من المادية والقول بوحدة الوجود . وكان  
الرواقيون يتصورون وجود قوى أو توترات في كل شيء ، ممتدة بامتداد المادة ،  
وهذه التوترات هي السبب فيما يقع في العالم من انبساط وانقباض . وقد وقع  
الرواقيون في المفارقات أو المبهمات التي وقع فيها الأبيقوريون ، لأنهم كانوا يسمون  
بوجود النفوس ، وإن قالوا إنها مصنوعة من المادة ، من ضرب من المادة أُلطف  
من مادة الأجسام المحسوسة ؛ وإذن فهي في نظرهم جسمانية لا روحانية .  
والغالب على الرواقين العناية بالأخلاق ؛ وقد فصلوا ما ذهب إليه سقراط  
من أن الفضيلة علم ، وقالوا إن الخير الحقيقي يتلخص في أن يعيش الإنسان  
على نحو يتفوق مع العقل أو مع الطبيعة ، ويقتضى هذا معرفة كافية بالطبيعة  
( الطبيعات والإلهيات ) . وتعاليمهم العلمية مستمدة من أفلاطون أكثر مما هي  
مستمدة من أرسطو ، ولذا ينقصها الوضوح ، فجاءت مختلطة ببعض الشيء .  
فقد أضلهم مثلاً ما كان يقول به أفلاطون من تقابل بين العالم الأكبر والعالم الأصغر\*  
فجعلوا للتنبؤ شأناً كبيراً ، واتبعوا في ذلك المآثورات اليونانية القديمة ،

\* العالم الأكبر هو الكون كله ، والعالم الأصغر هو الإنسان ، وعلى أساس التقابل بينهما  
يمكن التنبؤ . وفكرة أن الإنسان عالم أصغر موجودة عند غير واحد من فلاسفة الإسلام . ( المرجع

فأثبتوا بهذا أنهم أقل بكثير من الأبيقوريين في التحرر الموروث .

ونبذ الرواقيون المذهب الذرى ، وإن لم يؤد بهم هذا إلى أن يعتبروا الجوهر الذى يتكون منه العالم غير مادى . فكل شئ عندهم يتألف من العناصر الأربعة بحسب ترتيبها فى نصيبها المتزايد من اللطافة : الأرض . والماء . والهواء ، والنار . والإله نفسه مادى فى نظرهم ، وكذلك العقل ، سواء أكان عقل العالم أم العقل الفردى الذى يشبه « جزءا منفصلا من الإله »<sup>(٥٥)</sup> . وهو يشبه أيضاً ضربا من النسمة الحارة . والنفوس عندهم نارية ، وفى آخر كل دور كوفى يقع احتراق يشمل العالم كله ، فيرده إلى النار الإلهية ، وقد يحدث بعد ذلك خلق جديد<sup>(٥٦)</sup> . إلا أن هذه الآراء فاسدة مضطربة تكونت فيما بعد ، ولا يصح أن نبادر فنزوها إلى المتقدمين ، والنقطة الأساسية ، منذ أيام زينون ، هى أن العالم مكوّن من مادة وعقل ، وهذان ليسا سوى مظهرين لحقيقة واحدة ، فلا عقل بلا مادة ، ولا مادة بلا عقل . وبعبارة أخرى ، الإله قوة سارية فى كل شئ ، إلا أنها قوة لا يمكن أن تنفصل عن جميع الأشياء . وليفهم القارىء ذلك إن استطاع ! وبالجمله لم يكن مذهب الرواقين أقل مادية من مذهب الأبيقوريين ، وإن كان أقل منه حظا من الصبغة العقلية .

والأخلاق هى ذروة المذهب الرواقى ومجده الخالد . فالخير الأعظم عند الرواقين هو الفضيلة . والفضيلة تتلخص فى أن يعيش الإنسان معيشة تتفق مع الطبيعة أو العقل . والفضيلة هى الخير الوحيد ، والرذيلة هى الشر الوحيد ، وكل ما عدا ذلك ، من فقر ومرض ، وألم وموت ، شئ لا يصح أن يؤبه له . والإنسان القاضل الذى لا يمكن أن يسلبه أحد فضيلته ، بمنأى عن أن يناله شئ من المتاعب ، لأنه إذا رجع إلى نفسه وتبين أن معظم ضروب البؤس عبارة عن تصورات ، فإن فضيلته تؤتبه الاكتفاء الذاتى ، وعدم القابلية للتأثر ، والخلاص من الألم . وهذه الطمأنينة شبيهة بما عند الأبيقوريين . وإن كانت أقل خمولا وأكثر شجاعة ( أو صارت كذلك فى العصور الرومانية ) . ولا يكفى الإنسان أن يحتمل ويكبح جماح نفسه . بل يجب عليه أن يكون جريئا .

ومما ترتب على مذهب الرواقيين ، أنه يجب على الحكيم أن يحصل ما يمكنه من المعرفة ، لأنه لا بد له من أن يعرف الكون كي يعيش على نحو يتفق مع الطبيعة ، ومن المؤسف أن معظم الرواقيين قنعوا في هذه الناحية بعلم طبيعي ناقص كل النقص ، فلم يتوفر لديهم حب الاستطلاع العلمي . وإذا كان المذهب الرواقى قد سما بالقلب ، فإنه لم يرهف من حد العقل .

وقد قبل الرواقيون فكرة العناية الإلهية وظنوا أن أساليبها يمكن أن تعرف عن طريق النبؤ . وهذان الأمران مثالان جيدان يبينان تناقضهم ، وهو تناقض يرجع إلى نقص في التدقيق العلمي وقلة التحمس في محاربة الأحاسيس الموروثة .

وأكثر ما يذكر من مصنفات زينون التي لم تصل إلينا رسالته في السياسة ، وإذا أخذنا بما يقوله بلوتارك فإن هذه الرسالة كانت ردّاً على جمهورية أفلاطون . ومهما يكن من شئ فإن الرواقيين عنوا بالسياسة ، فكانوا من هذه الناحية متفوقين عن الأبيقوريين الذين دعاهم تعلقهم بالسكينة إلى اعتزال السياسة . أما الرواقيون فقد أحسوا بأن من واجب الإنسان أن يأخذ ينصيبه الكامل في حمل الأعباء السياسية ، وهذا يفسر لنا نجاح المذهب الرواقى في ميدان القانون والإدارة لدى الرومان .

وأطرف ميمز وأجمله في الأخلاق والسياسة عند الرواقيين ، شعورهم بالأخوة أو بالمشاركة لا بين أهل مدينتهم أو بلادهم فحسب ، بل بين أهل العالم كله . وقد تخلصوا . بفضل تأثير الانقلاب الهائل الذى نجم عن فتح الإسكندر للعالم ، من تقليد من أقدم التقاليد اليونانية وأقواها ، ونعنى به الروح المتركة حول المدينة أو الإقليم ، على نحو ما كان ذلك سائداً في العصر الهيلينى ، وأصبحوا ممثلين لفكرة الوطن العالمى لأول مرة في التاريخ . ويقول بلوتارك . إن شخص الإسكندر وما قام به كان وراء ما يحلم به زينون . وليس هذا صحيحاً تماماً . فإن هذه الفكرة لم تبعثها في نفس زينون إمبراطورية الإسكندر ( التى كانت تتداعى ) بقدر ما بعثها فكرة الإسكندر نفسه عن وحدة النوع الإنسانى . فجعل زينون من تلك الفكرة الفردية نظرية فلسفية<sup>(٥٧)</sup> .

ونظرية وحدة النوع الإنساني ( إجماع النوع الإنساني ) كانت أحد مصادر القانون الروماني ، أو أحد مصادر ما يسمى قانون جميع الأمم ، أو قانون الطبيعة<sup>(٥٨)</sup>. ومن جهة أخرى فإن تلك الفكرة كان يمكن ( كما حدث فعلا ) أن تؤدي إلى تبرير آراء شائعة ، وإن تكن فاسدة ؛ فإذا آمن الناس جميعا بالتنبؤ ، أفلا يكون من الأحكم والأقل ضررا أن يشاركهم الإنسان في اعتقادهم ؟ على أن القيمة السياسية للمذهب القائل بالوطن العالمي قد راقى الرومانيين ، وإن كان من شأنها أن تنقلب بسهولة صورة هادمة مخربة . والفكرة القائلة بأن جميع الناس إخوة يمكن أن تعتبر نظرية خطيرة ، وقد عمل على تقويتها فيما بعد النصراني الأولون ، وكانت أحد أسباب الاضطهادات التي عانوها .

أما نحن الذين ننظر من مسافة بعيدة فإننا ندرك أن الأخلاق الرواقية ، في الجملة ، وما فيها من فكرة الوطن العالمي خاصة ، كانت تقدما عظيما ، تقدما بلغ من العظمة إلى حد أن كل ما كان يتحقق منه كان لا يزال يهدم أو يتعرض للخطر مرة بعد مرة . ونحن نستطيع أن نقدر ذلك تقديرا أشد من تقدير الناس له في أي عصر سابق ، بسبب التجارب المروعة والكوارث الفظيعة والشهوات الجاحمة في عصرنا هذا<sup>(٥٩)</sup> .

ومن سوء الحظ أن الرواقين قبلوا ، في خفة شديدة ، كل ضروب الخيالات الفيثاجورية والهيراكليتية والأفلاطونية ، فقلت ثمرة نظرياتهم الأخلاقية ، لأنه لم يكن يصاحبها إلا علم ضعيف بالكون ، وانضمت إليها ديانة تستند إلى التنجيم . ومع ما اشتملت عليه من بواعث روح المحبة . كانت ذات صبغة مجردة ونظرية إلى حد أنها لم تلائم عامة الناس من غير المثقفين ، وهؤلاء هم الغالبية ؛ فانتهى المذهب الرواقي إلى أن صار عقيدة مجردة من الطقوس والمعجزات ، فتركت العيون جافة والقلوب باردة ، ولم تستطع أن تنافس الديانات ذات الطقوس ، والأمور الخالقة للمعادة ، والتي كانت تعزى النفوس رغم أنواع البؤس التي لا نهاية لها ، وتعد متبعتها بالنجاة والخلاص وسط المخاوف ، فاقترنت

الأخلاق الرواقية بعلم رديء وديانة ليس فيها حرارة ، وكانت آخر معقل من معاقل الوثنية أمام النصرانية ! فلا ندهش لإخفاقها ، بل ندهش لذيوعها وقبول الناس لها بعض القبول .

### موجز تاريخ المدرسة الرواقية :

تكونت الفلسفة الرواقية كلها أيام زينون ، وقبل نهاية القرن الرابع قبل الميلاد . ولتقص خبر تطورها بعد ذلك قصصا موجزا ، لأننا لانستطيع أن نعرف قيمة البذر إلا بعد أن نرى كيف نبت ، ونشاهد براعمه وزهوره وثماره . خلف زينون في رياسة المدرسة تلميذه كليانتيس ، من أهل أسوس ( النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد ) ، وقام على أمرها من ٢٦٤ إلى ٢٣٢ ق. م. )<sup>(٦٠)</sup> . وجاء بعده خريسيبوس من أهل سولوى ( في النصف الثاني من القرن الثالث ) ، وزينون الطرسوسى ( ح ٢٠٨ إلى ١٨٠ ق. م. ) وديوجنيس السليوكى ( النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد ) ، وهو الذى حمل المذهب الرواقى إلى روما سنة ١٥٦ - ١٥٥ ق. م<sup>(٦١)</sup> ، وأنتياتروُس الطرسوسى وبناتيوس الرودى ( النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد ) . وهذا الأخير هو الرئيس السابع للمدرسة ، وقد عاش حيننا من الزمان مع بوليبيوس ( النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد فى روما ، وأتم ما كان قد شرع فيه ديوجنيس من إدخال صفوة الرومان فى المذهب الرواقى ، واستقر أكبر تلاميذه ، وهو بوسيدونيوس من أهل أقاميا ( النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد ) فى رودس ، وهناك استمع شيشرون إلى محاضراته سنة ٧٨ ق. م .

وكان هؤلاء الرجال فلاسفة ورؤساء للمدرسة . وإذا كانوا لم يغيروا المذهب الرواقى تغييرا جوهريا ، فإن كلا منهم مضى فى بحوثه الخاصة . وكان كليانتيس شاعرا ، وكريسيبوس منطيقيا ونحويا ( ويظهر أن ما أضافه إلى المذهب الرواقى كثير ، حتى قيل إنه « لارواقية بدون كريسيبوس » )<sup>(٦٢)</sup> ، واهتم ديوجنيس

البابلي بالنحو وعلم الآثار ، والتنبؤ ، وعنى بنايتيوس خاصة بالأخلاق ، وكان بوزيدونيوس جغرافيا وفلكيا .

وليلاحظ القارئ أن كل هؤلاء الرواقيين الأول من غربي آسيا (٦٣)؛ فالمؤسس ، زينون ، من قبرص ، وثلاثة آخرون من قليقية (٦٤) ، (هم خريسيبوس من أهل سولوى ، وزينون وأنتباتروس الطرسوسيان ) ، وبوسيدونيوس من أفامية على نهر الأورنط ، وديوجنيس من سليوكيا على نهر الدجلة . وهناك ثلاثة آخرون كانوا أقرب إلى البحر الإيحيى وإلى العالم اليونانى الحقيقى وهم : كليانتيس المنسوب إلى أسوس Assos ( قريبا من لسبوس Lesbos ) . وأريستون المنسوب إلى خيوس وبناتيوس الرودى . فالآراء الرواقية ولدت فى آسيا ، وكملت صورتها فى أثينا ، وبلغت نضجها وصارت ذاتة مقبولة فى روما . وعلى حين أن المذهب الأبيقورى بلغ ذروته ونهايته أو كاد ، على يد لوكريتيوس ( فى النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد ) فإن نمو المذهب الرواقى كان أبطأ وحياته أطول ، ويمثله فى صورته المتأخرة ثلاثة فطاحل هم : سينيكا القرطبي ( النصف الثانى من القرن الأول للميلاد ) وإبيكتيتوس Epictetos ( النصف الأول من القرن الثانى ) وماركوس أوريلوس انتونيوس ( النصف الثانى من القرن الثانى للميلاد ) (٦٥) . ومن الطريف أن هذا الإمبراطور العظيم أنشأ فى أثينا أربعة كراسى للفلسفة فى سنة ١٧٦ م ، لتمثيل المدارس الأربعة : الرواقية والأبيقورية والأكاديمية والمشائية ، وهذا يدل على كرم النفس والتسامح ، ويعلل بقاء هذه المدارس الأربع دون غيرها فى أثينا فى آخر القرن الثانى الميلادى (٦٦) . وهكذا عاش أفلاطون وأرسطو وأبيقورس وزينون حتى آخر أيام الوثنية ، ثم دسهم فى التراب قرونا انتصار المسيحية ، ولكنهم لا يزالون أحياء حياة قوية جدا إلى اليوم .

## هوامش الفصل الثالث والعشرون

(١) ولد ديوجينيس في المدة ما بين ٤٠٠ و ٤١٢ ق . م على التقريب ، في سينوبى ، قرب وسط الساحل الجنوبي للبحر الأسود ، ومات في كورنثيا عن سن عالية جداً ، حوالى ٣٢٥ - ٣٢٣ قبل الميلاد .

(٢) تفضل زيلى الأستاذ G.H. Chase بجامعة هارفارد بأن كتب إلى (في ١٣ فبراير سنة ١٩٥١) أنه يرى أن أحسن ترجمة في نظره للعبارة اليونانية وهى : «تزييف العملة» ، معنى كلمة *paracharattein* اليونانية هو : «النقش على نحو غير صحيح» . ويقول الزميل : «وعلى هذا فأنى أميل إلى الظن بأن والدديوجنيس وقع في المتاعب لطبعه عملة مدينة سينوب على صورة غير الصورة المقبولة رسمياً ، لأنه كان يعيد طبع المسوح منها» ، على أنه يمكن أن تعتبر العملة « مزيفة » عند فريق ، ولا تعتبر مزيفة عند الفريق الآخر .

(٣) يقال إن كراتيس كان تلميذا لبريسون Bryson قبل أن يتبع ديوجينيس . وهذا حق ، لكن بريسون هذا كان هو بريسون المنسوب إلى أخايا Bryson of Achaia لا بريسون العالم الرياضى الذى كان من أهل هيركليا . Bryson of Heraclea .

(٤) بريسون هذا هو غير شخصين يسميان باسمه ، قد ذكرناهما في الهامش السابق . واسم بريسون لم يكن نادراً ، إذ يتكلم يامبليخوس Iamblichos (في النصف الأول من القرن الرابع) في كتابه عن حياة فيثاجورس (فقرة ١٠٤) عن تلميذ سابق يحمل هذا الاسم . وتنسب إلى رجل يسمى بريسون رسالة في الاقتصاديات ، وهو مؤلف من أتباع المذهب الفيثاغورى الجديد ، وقد نبغ في الإسكندرية أو في روما في القرن الأول أو الثانى بعد الميلاد . وقد نشر هذه الرسالة مارتين بليسنر Martin Plessner (مجلة Isis مجلد ١٣ ص ٥٢٩ - ١٩٢٩ - ١٩٣٠) . فإذا رجعنا إلى بريسون الذى نتكلم عنه الآن ، وهو ابن ستيلبون ، فإننا نقول إنه يجوز أن يكون أبوه هو ستيلبون المشهور الذى كان ثالث رئيس للمدرسة الميجارية ؟ وستيلبون هذا ( من ٣٨٠ إلى ٣٠٠ ق . م . تقريباً ) كان قد تأثر بديوجنيس السينوبى كما تأثر بأقليس الميجارى Euclides of Megara ، وقد نالت المدرسة الميجارية في أيام رئاسته لها صيتاً كبيراً ، ولكن ذلك كان نهاية حياتها .

(٥) راجع كتاب F. Charles-Roux بعنوان Bonaparte, gouverneur d'Egypte (باريس ، دار نشر Plon ١٩٣٥) [مجلة Isis المجلد ٢٦ ، ص ٤٦٥ - ٤٧٠ (١٩٣٦) ] .

(٦) وتيمون بن تيمارخوس ، من أهل فيلوس (إلى شمال شرق اليلوبونيز) وهو أيضاً من أسرة فقيرة ، وبدأ حياته راقصاً ، ودرس على ستيلبون الميجارى ثم على بيرون ، وقد حوله بيرون إلى مذهبه . ولما كان قد اضطر إلى مغادرة إيليس ، فإنه زاوُل مهنة المعلم السومطاطى في البلاد المحيطة بهيليسبونت Hellespont وهريوبونتيس Propontis . وبعد أن جمع ثروة آثر الحياة في أثينا ، وفيها عاش إلى أن مات في سن عالية جداً . وأخص ما يذكر سبب أشعاره التهكمية التى انفرد بنوع منها اختص به Sillio .

(٧) وفي رواية قديمة أن بيرون سئل بعد موته : « هل أنت ميت يا بيرون ؟ » فأجاب : « لأعرف » .

(٨) هو أركيسلاوس البيتاني Arcesilaos of Pitane (من مقاطعة أيوليس Aiolis) وكان تلميذاً لأوتوليوكوس البيتاني Autolykos of Pitane الرياضي، ثم ذهب إلى أثينا، وفيها تلمذ لثيوفراستوس وبوليبيون وكرانتور، ثم خلف كراتيس في رياسة الأكاديمية .

(٩) كارنياديس البرقاوي هو الذي أدخل مذهب الشك في مدينة روما سنة ١٥٥ ق.م. وقد طلب كاتو Cato من مجلس الشيوخ في روما أن يرسل هذا الرجل الخطر الذي أفسد الشباب الروماني إلى بلده أثينا . (وفي روايات أخرى أنه عاش في القرن الثالث - المترجم) .

(١٠) هو أينيديموس من أهل كنوسوس Ainesidemus of Cnossos ، وله كتاب لم يصل إلينا ، كان أحد المصادر التي اعتمد عليها سكتوس أمبريكوس (النصف الثاني من القرن الثاني للميلاد) .

(١١) كان كاساندروس وصيا على عرش مقدونيا من سنة ٣١٦ إلى ٣٠٦ ق.م. ثم صار ملكاً من سنة ٣٠٦ إلى ٢٩٧ ق.م. وهو الذي أسس مدينة تسالونيك (سالونيك) .

(١٢) استعملنا في وصف هذا النقد كلمة anticlerical (أي المضاد لطائفة رجال الدين) عن قصد، وهي تدل على رد فعل لا بد أن يحدث في كل بلد يميل فيه رجال الدين إلى إساءة استعمال سلطانهم ومزاياهم . وكان القسس في معابد وأماكن مقدسة لاعدد لها في كل بلاد العالم الإغريقي يتمتعون بقدر كبير من السلطان . ولما كانوا آدميين فقد طمحووا إلى سلطان وثروة أكبر مما كان لهم . وصارت لهم مصالح لا بد أن يحموها ويوسعوا نطاقها ، وهم بفعلهم ذلك لم يستطيعوا أن يتفادوا خلق أعداء لهم .

(١٣) انظر كتاب Diogenes (الياب العاشر) ، وكتاب Epicurus, the extant remains تأليف Cyril Bailey (باليونانية والإنجليزية ٤٣٢ صفحة، أكسفورد ١٩٢٦)، وللمؤلف نفسه كتاب: The Greek atomists and Epicurus (٦٣٠ صفحة، أكسفورد ١٩٢٨) [مجلة Isis ، المجلد ١٣ ص ١٢٣ - ١٢٥ (١٩٢٩ - ١٩٣٠)] .

وراجع كتاب Marie Jean Guyau (١٨٥٤ - ١٨٨٨) ، وعنوانه :

La morale d'Epicure et ses rapports avec les doctrines contemporaines.

(٢٨٥ صفحة ، باريس ١٨٧٨ ، الطبعة السابعة ١٩٢٧) . وكتاب Benjamin Farrington

وعنوانه : Science and Politics in the Ancient World (٢٤٤ صفحة ، نيويورك طبعة

Oxford University Press ١٩٤٠) [مجلة Isis ، المجلد ٣٣ ، ٢٧٠ - ٢٧٣ (١٩٤١ - ١٩٤٢)] .

(١٤) كان نوسيفانيس ، من أهل تيبوس ، قد تخرج على يد بيرون الإيلي ، وربما كان ذلك أيام اشتراكهما في حملة الإسكندرية الآسيوية ، وصار نوسيفانيس فيما بعد من القائلين بالمذهب الذري ولكنه خالف ديموكريتوس في أنه أصر على وجوب أن يأخذ العالم بتصيب في الحياة العامة .

(١٥) هم نيكليس ، وكان هو الأصغر ، خير يد يموس Chairedemos وأرستوبولوس ولأعرف فيلسوفاً آخر من أتباعه إخوة ثلاثة له ، سوى أبيقورس .

(١٦) وكانوا جميعاً من أهل لامبساكوس ، أو من المقيمين فيها .

(١٧) أو بستانا ho cepos .

(١٨) ديوجينيس هذا كان يسمى ديوجينيس الأوينواندا Diogenes of oinoanda ولا يعرف تاريخ مولده ولا تاريخ وفاته ، وكانت أوينواندا أرضاً إلى شمال لوكيا ، في جنوب غربي آسيا الصغرى . وقد نشر نقشه في المكتبة التويبرية Teubner على يد Johannes William ، بعنوان : Diogenis Oeinoandensis Fragmenta ( ١٥١ صفحة ليزج ١٩٠٧ ) .

(١٩) ونحن نجعل لكلمة distribute (= يوزع) هنا المدلول المألوف عند قدماء أصحاب المطابع ، فقد كانوا يفرقون الحروف التي استعملت في طبع نص ، ويوزعونها على « خانات » صندوق الحروف لكي يمكن استعمالها في طبع نص آخر .

(٢٠) هذه نقطة غامضة جداً ، لا أزم أن أفهمها . راجع كتاب Bailey المسمى The Greek Atomists and Epicurus ملحق ٥ ص ٥٨٠ - ٥٨٧ ، وذلك فيما يختص بالعلاقة بين ذلك المنصر « الذي لا يمكن وصفه » وبين « العقل » .

(٢١) وبعد ذلك بقرون قليلة كان هناك ما دعا الشاعر أوفيد (من ٤٣ ق . م. إلى ١٨ م) لأن يردد هذا المعنى قائلا : من أحسن الاختفاء عن الناس عاش عيشة طيبة 25, IV, el. III, Tristium lib. وهذه لا تزال نصيحة طيبة في أيامنا ، ولكن حاجة الناس في القرن الرابع قبل الميلاد ، أو في القرن الأول ، كانت أشد من حاجتهم إليها الآن ، على الأقل في البلاد المتعدنة .

Diogenes Laertios X, 1. (٢٢)

(٢٣) كتب أندريه جيد في يومياته ، بتاريخ ٢١ مارس سنة ١٩٠٦ م هذه الملاحظة : « لاشك أن الغرض الخفي من الأساطير كان هو الحيلولة دون تقدم العلم » . وهذا مبالغة في بيان الحقيقة ، لأن الغرض من خداع العامة وتضليلهم لم يكن عند أصحابه عن قصد وتدبير بقدر ما كان شيئاً يأتونه وهم لا يشعرون . وأكبر فضل لأبيقورس هو أنه كشف عن هذا الغرض وحاربه .

(٢٤) هذا الخطاب المعلن في الطول قد ذكره بأكله ديوجينيس اللايرسي 135-122, X ، وهو خلاصة جيدة للأخلاق الأبيقورية . ونحن نقتصر على اقتباس بدايته ، وهي تتناول أمر الآلهة ، وأبيقورس يتكلم بعد ذلك عن خوف الموت ، فيعتبره خوفاً لا مبرر له ، وعن الشهوات الحسنة والقيحية ، وعن اللذة . . إلخ . وقد ترجم هذا الخطاب R.D. Hicks في مجموعة Loeb-Classical Library ، ج ٢ (١٩٢٥) .

(٢٥) لا دليل على أن الأبيقوريين عملوا شيئاً يذكر لتعليم العامة الفقراء الأميين ، ولكن لم يكن أحد في العصر القديم يعني بالعامه . ولم يتيسر تنظيم التعليم العام إلا على يد الدولة أو الهيئات القوية . ولقد أدرك الأبيقوريون الحاجة إلى التعليم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينهضوا به ، ولم يحاولوه . وكانت نقطة الضعف الكبرى في مذهبهم ما بثوه في النفوس من عدم المبالاة ومن روح سلبية ، وبدا كانت تعوزهم روح الهمة .

(٢٦) راجع كتاب Murray الذي عسوانه : Greek studies ( أكسفورد ،

دار طباعة كلارينتون (١٩٤٦) ، ص ٨٥ ، وكتاب Farrington الذي عنوانه Science and Politics in the Ancient World ص ١٥٩ .

(٢٧) وليذكر الإنسان بسكال Pascal فلماذا يهجر هؤلاء الرجال الرياضيات ؟ لأن الفلسفة أو الدين يستهويهم أكثر من غيره ؟ أم لأن عملهم الرياضى يكون قد انتهى ؟ ويستطيع الإنسان أن يقول إنهم لا يهجون الرياضيات ، بل الرياضيات هي التي تهجرهم .

(٢٨) الشهور اليونانية المذكورة في هذه الفترة توافق ، على وجه التقريب الشهور الآتية :  
جميليون يوافق يناير وبوزايدون يوافق ديسمبر ، وميتاجايتيون يوافق أغسطس .

(٢٩) Diogenes Laertios ، كما ترجم ذلك R.D. Hicks ، في مجموعة Loeb Classical Library

. ١٩٢٥

(٣٠) هما البطلميوسان اللذان كان « أحدهما أسود والآخر أبيض » . وإذا فهمنا من كلمة أسود معناها الحرقى كان بطلميوس الأسود أول فيلسوف أسود ( في القرن الثاني ق . م . ) ، وهذا مما يمكن تصديقه تماماً ، فقد كان الأبيقوريون إنسانيين إلى أبعد حد .

Diogenes Laertios, X, 25-26. (٣١)

(٣٢) فيدروس الأبيقورى ( من ١٤٠ إلى ٧٠ ق . م ) كان رئيس المدرسة الأبيقورية في روما ، وقد أوحى أحد كتبه ليشيرون أن يكتب كتابه De natura deorum ، وقد عثر على شذرات منه في هر كولانيوم ، ونشرها Christian Peterson ( ص ٥٢ ، هامبورج ١٨٣٣ ) .  
(٣٣) راجع أول الباب الخامس من كتابه De rerum natura ، حيث يقول : « لقد كان لعمري إلها ، ياميميوس العظيم ! ذلك الذى كشف عن هذه القاعدة للحياة » . لك . ميميوس جيبوس G. Memmius Gaius ، وهو الذى أهدى إليه لوكريتيوس هذه القصيدة . : « كان سياسيا وخطيبا رومانيا ( نبع فيما بين سنتي ٦٦ ، ٤٩ ق . م . )

(٣٤) قد يجوز أن يكون كيلسوس هذا هو كيلسوس الذى نبع في الشرق الأدنى ( مصر ) ؟ ولكن ذلك ليس من المحقق ، وله الكتاب المسمى كلمة الحق Alethes logos ، وهو أول نقد منظم للنصرانية ، ولا يعرف إلا من رد أوريجين عليه ( النصف الأول من القرن الثالث ) .

(٣٥) راجع التفصيل الواقى في كتاب Franz Cumont ( ١٨٦٨ - ١٩٤٧ ) وعنوانه Les religions orientales dans le paganisme romain ( باريس ١٩٢٩ ) [ مجلة إيزيس ، المجلد ١٥ ص ٢٧١ ( ١٩٣١ ) ] .

(٣٦) في كتابي المقدمة : Introduction... ، ج ١ ص ٢١١ جعلت زمن كليوميديس أقدم من زمنه الحقيقي ( النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد ) وزمنه بعيد جدا عن اليقين ، وربما كانت حياته تقع في الفترة الممتدة من أواخر القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الثالث بعد الميلاد ، وفيما يتعلق بمحاربة كليوميديس لأبيقورس ، راجع كتاب Saul Lieberman الذى عنوانه Hellenism in Jewish Palestine ( نيويورك Jewish Theological Seminary

(١٩٥٠) [مجلة Isis المجلد ٤٢ ص ٢٦٦ (١٩٥١)].

(٣٧) كانت كلمة Epiqoros أو Apiqoros ، تستعمل زمن المشنا بمعنى «المفكر الحر غير المؤمن الذي يسخر من الربانيين ولا يؤمن؛ بالآخرة». انظرالمقالة التي كتبها برنارد هيللر B. Heller في دائرة المعارف اليهودية Encyclopaedia Judaica مجلد٦ (١٩٣٠) ص ٦٨٦ - ٦٨٨. وقد كتب لي صديقي الأستاذ جاندرز Gandz (في ١٥ فبراير ١٩٥١) أن كلمة «أبيقورى» في الأدب العبرى لاتعنى الممتع الشهوانى ، بل هى تدل على الكافر المنكر للدين. راجع أيضاً ملاحظاته في مجلة Isis المجلد ٤٣ ، ص ٥٨ ، ١٩٥٢ .

(٣٨) مع مذاهب الإسماعيلية مثلا ، في الشرق الإسلامى، وراجع كتابي ، Introduction... ص ٣ ص ١٤٩ . وتاريخ المذهب الذرى ، العلنى منه والسرى ، قد لحقه التعقيد البالغ ، لأن الآراء الأساسية فيه ليست يونانية فقط ، بل هى ترجع أيضاً إلى مذاهب الجاينا Jaina والبوذيين ، من أهل الهند . وفوق ذلك فإن مافى هذا المذهب من السرية وتعمد الخداع يشبط عزيمة الباحثين ويضلهم ، وهذا هو أسوأ ما فيه .

(٣٩) راجع كتاب G. Sarton بعنوان :

“Boyle and Bayle. The sceptical chemist and the sceptical historian,” Chymia

، ص ١٥٥ - ١٨٩ (فيلادلفيا ، دار طباعة جامعة بنسلفانيا ١٩٥٠) .

(٤٠) فيما يختص بارنست ماخ راجع مقاله أينشتين Einstein في كتاب لاسحاق بنروبي

Isaac Benrub عنوانه: 'Les sources et les courants de la philosophie contemporaine : (باريس ، نشرة Alcan ، ١٩٣٣) ص ٤١٦ ، هامش ٣ .

(٤١) انتهى إلينا هذا الخطاب ضمن أوراق البردى التي عثر عليها في هر كولانيوم Herculaneum

ورقة رقم ١٧٦ ، والترجمة لكوريل بيل Cyril Bailey في كتابه The Greek atomists and Epicurus ص ٢٢٥ .

(٤٢) pneumōn أو 'pneumōn' ، وهى الكلمة التي استعملها بيتياس Pytheas (رثة البحر) .

والكلمة بعيدة عن أن تكون واضحة المعنى ، ولكن يقصد بها التشهير ، ولا شك .

(٤٣) هاتان القطعتان المقتبستان نقلناهما عن ديوجنيس اللاترى (X, 15; X, 22) ترجمة

هكس (Loeb Classical Library - ١٩٢٥) .

(٤٤) كانت كيتيون في موضع لارناكا Larnaca الميناء الأكبر في قبرص ، على الشاطئ

الجنوبى الشرقى . وزمان إنشاء هذه المستعمرة الفينيقية يرجع إلى ما قبل التاريخ. وإذا لم يكن يجرى في عروق زينون دم فينيقى ، فمن السهل أن يكون قد تأثر بالمؤثرات الفينيقية (السامية) في شبابه . ومحاولة إقامة الدليل على وجود أصل سامى لزينون وللمذهب الرواقى محاولة خرقاء لا يمكن أن تقوم على أساس .

(٤٥) في كتابي المقدمة ... Introduction ، ج ١ ص ١٣٧ ، أعطيت لميلاد زينون

وفاته سنئى ٣٣٦ و ٣٦٤ ق.م. على وجه التقريب ، مفترضا بذلك أنه مات عن اثنين وسبعين عاماً . ولو اختار الإنسان أشخاصاً كثيرين من تكلم عنهم ديوجنيس اللاترى وغيره لاستطاع أن

يُحصل على تواريخ مختلفة كلها متساوية تقريباً في درجة الاحتمال ، ونستطيع أن نخلص من ذلك مطمئنين إلى أن المذهب الرواقى كان من ثمرات أواخر القرن الرابع قبل الميلاد .

Diogenes Laertios, VII, 2. (٤٦)

(٤٧) العبارة اليونانية أوجز وأرشق :

“nyn euploeca, ote neuageca”; Diogenes Laertios, VII, 4.

(٤٨) إذا كان قد تلمذ لكزنيوكراتيس ، فلا بد أن يكون قدومه أثينا قبل سنة ٣١٥ - ٣١٤ ق . م . لأن كزنيوكراتيس مات في هذه السنة . أما ستيليون فكان يعلم وخصوصاً في ميجارا وأما ديودورس كرونيوس وهو من أساموس ( في كاريا ) فكان يعلم في الإسكندرية في عهد بطلميوس سوتر Ptolemaios Soter ، على أنه يجوز أن يكون زينون قد لقيهم في أثينا .

Diogenes Laertios, VII, 25 (٤٩)

(٥٠) كل هذا يجب أن يقرأه الإنسان في اللغة اليونانية ، لأن الألفاظ الأصلية طريفة في بابها ، وإني مضطر إلى مقاومة ميلى الشديد إلى ذكر نصوص يونانية أكثر مما ينبغي وقد لا يكون هذا ضرورياً ، لأن من السهل قراءة كتاب ديوجينيس اللاترى في المجموعة التي نشرها لويب ( مجلد ٧ ؛ ١٦٠-١٦٠ ) وإحدى ملاحظات ديوجينيس ( ج ٧ ، ٣٢ ) تحيرنى وهى : « يقال إن زينون كان من عاداته أن يقسم نبات القبار ، كما كان من عادة سقراط أن يقسم بالكلب » ، والقبار نبات من نباتات إقليم البحر المتوسط ، واسمه في اللغة اللاتينية مأخوذ من اسمه اليونانى الأصل Cappari وفي هذا شيء من الأدب الشعبي ، فهل كان اليونان يحبون القبار ؟

تفضل صديق الأستاذ دلاق A. Delatte ، فكتب لى من مدينة لياج ( في ٢٦ مارس ١٩٥١ ) إجابة عن سؤالى هذا : قال إن زينون شأنه شأن سقراط ، والفيشاجورين ، لم يكن يحب أن يقسم بالألثة ، بل كان يؤثر أن يقسم بشيء غير ذى بال ، وكلما كان هذا قليل الشأن كان ذلك أفضل . (٥١) Diogenes Laertios VII, 28 ، حسب ترجمة Hicks . أما Niobe فقد كتبها تيموتيو من أهل مطية ( ٤٤٦ إلى ٣٥٧ ق . م ) ، وهو الشاعر والموسيقار الأثينى المعروف الذى زاد في عدد أوتار القيثارة . والبيت الذى تمثل به زينون هو فى اليونانية هكذا erchomai; ti m'auais (٥٢) انظر كتاب A.C. Pearson الذى عنوانه The fragments of Zeno and Cleantes (٣٥٢ صفحة ، لندن ١٨٩١ ) ، باليونانية واللاتينية ومع شروح بالإنجليزية ، وشذرات زينون ١٨١ صفحة ، وشذرات كليانتيس ٩٥ صفحة . وهناك ٢٠٢ شذرة لزينون و ١١٤ لكليانتيس . وثم شروح يونانية مفيدة كل الفائدة . وهى ترجع إلى زينون وكليانتيس مباشرة .

(٥٣) وليلحظ القارئ أن كل هؤلاء الرجال كان لهم إلمام باللغات الأجنبية ، فزينون من قبرص ( إذا لم يكن من قليقية ) ، وخريسيبوس من قليقية ، وديوجينيس تقتمحت مواهبه في روما زمننا ، وكان كراتيس على رأس دار الكتب في برجامه . والتنبه إلى المسائل النحوية يسهل كثيراً على الإنسان عندما ما يقارن لغته بلغة غيره .

(٥٤) فيما يخص بالمنطق الرواقى جملة، راجع كتاب Antoinette Virieux-Reymond وعنوانه :  
La logique et l'épistémologie des Stoiciens, leur rapports avec la logique d'Aristote  
la logistiquie et la pensée

(٣٣٨ صفحة ، طبعة Lire : Chambéry ، ١٩٤٩) (مجلة ليزيس المجلد ٤١ ص ٣١٦ (١٩٥٠) .  
(٥٥) هذه عبارة من عبارات المتأخرين : Epictetos, I, 14, 6; II, 8, 11) apospasma tu theu :  
ولكن الفكرة قديمة قدم آراء زينون .

(٥٦) هذه صورة جديدة للأسطورة القديمة القائلة بالعود الأبدى eternal return أو عودة  
الأشياء عوداً متكرراً ، وهى أسطورة يغلب أنها ترجع إلى أصل شرقى ، ولكن أذاعها فيثاغورس  
وأفلاطون وهى تعود إلى الظهوريين حين وآخر فى كتابات الفلاسفة والمؤرخين الذين يتنبأون .

(٥٧) وأحسن بحث فى هذا الموضوع هو الذى قام به تارن William Woodthorpe Tarn ، بعنوان  
Aead Alexander the Great and the unuity of Mankind أنظر (Proc. British) مجلد ٩  
ص ٤٦ والصفحات التالية (١٩٣٣) . وقد بين تارن ، بيانا صحيحاً فيما أرى ، أن فكرة الإسكندر  
الأكبر عن وحدة النوع الإنسانى سابقة على مذهب الرواقيين ، وأنها ليست فكرة رواقية أضفها بعضهم  
على تراث الإسكندر فيما بعد ، وقد أكد تارن آراءه هذه من جديد فى كتاب حديث له عنوانه ،  
Alexander the Great ، (كهرج ، دار طباعة الجامعة ، ١٩٤٨) (مجلة ليزيس المجلد ٤٠ ،  
ص ٣٥٧ (١٩٤٩) .

(٥٨) إن معنى عبارة Law of nature أو natural law هو بوجه عام : القوانين العلمية  
(تميزاً لها عن القوانين الإنسانية) ، وهذا هو على الأقل معناها منذ انشاء الجمعية الملكية (راجع Oxford  
English Dcitionary ، مجلد ٦ ص ١١٥) أو منذ ١٦٠٩ م حين كتب بيكون Bacon كتابه  
المسمى Advancement of learning . وبحسب الاستعمال الفرنسى للعبارة ذاتها حوالى ذلك  
الموقت نفسه (Pascal) كانت عبارة loi naturelle تدل على المبادئ الخلقية والآراء المتعلقة  
بالمدالة ، المستقلة عن القانون المكتوب ، المتقدمة على هذا القانون . فالفكرة اليونانية عن وحدة النوع  
الإنسانى كانت بالضرورة أقرب إلى المعنى الفرنسى لعبارة « قانون طبيعى » منها إلى المعنى الإنجليزى ،  
لأن اهتمام اليونان « بالقوانين الخلقية » كان أكبر من اهتمامهم « بالقوانين العلمية » ، ولم يكن عندهم  
فكرة واضحة عن القوانين بمعناها الأخير .

(٥٩) ولكى يتبين القارئ الخلاف الجوهرى فى هذا الموضوع فى أيامنا ، ليتأمل من جهة  
تلك الصورة التالية التى فصلها Wendell Willkie فى كتاب المسمى One World أى عالم واحد (نيويورك  
نشرة Simon and Schuster ، ١٩٤٣) ومن جهة أخرى كيف صارت كلمة Cosmopolitan سبة فى  
اللغة الروسية . فعند المحافظين المتشددىن الذين يرفضون التفاهم لا يعتبر التسامح سوى ضعف فى الإيمان  
وعند الروس فكرة الوطن العالمى خيافة .

(٦٠) لابد من ذكر تلميذين لزينون أخذوا عنه مباشرة ، وهما أريستون من أهل خيوس  
Ariston of Chios وهير يولوس القرطاجى . أما أريستون فكان كليياً من كل وجه ، أكثر من أستاذه .  
كان يحتقر كل صور الثقافة ، وكان من أول الذين بالفوا فى تقدير قيمة علم الأخلاق (بالنسبة للمنطق

والطبيعيات) ، وصارت هذه المبالغة طابعاً يميز المدرسة الرواقية كلها. أما هيريلوس فكان على عكس ذلك يجعل للمعرفة epistémé شأنًا كبيراً . وحوالي منتصف القرن الثالث قبل الميلاد

كان أريستون وأركيزيلاوس ، أحد فلاسفة الأكاديمية ، هما الفيلسوفين البارزين في أثينا.

(٦١) جاء ديوجنيس هذا من سليوكيا على نهر الدجلة. وفي أيام رياسته للمدرسة كتب كراتيس المالوسي أول كتاب في النحو اليوناني (لم يصل إلينا) ، وكان كراتيس أول مدير لدار الكتب التي أسسها في برجامه Pergamon .

(٦٢) يجب أن يؤخذ هذا القول ، فيما أعتقد ، بالمعنى المادى ، لا بالمعنى الروحي ، فإن خريسيبوس كان ، بفضل كتاباته الغزيرة وقوة منطقه ، أكبر مدافع عن المدرسة الرواقية ( ضد فلسفة الأكاديمية) كما كان هو المنظم للفلسفة الرواقية . وكان له من الشأن في تقوية المدرسة الرواقية ما كان لثيوفراستوس من الشأن في تقوية المدرسة الأرسطية . ورؤساء المدارس العظاماء ليسوا مجددين بقدر أولئك الذين يساعدون في توضيح الآراء الجديدة وشرحها .

(٦٣) هذا باستثناء هيريلوس القرطاجي ، كما هو بين ، فنحن لا نعرف من أين جاء ، وقد يجوز أنه ولد في قرطاجة ، ولكنه كان تلميذاً لزيتون الكيتيوني ، وعنه أخذ دون واسطة ، والأغلب أنه جاء من بلاد اليونان أو من غربي آسيا كغيره .

(٦٤) كانت قليقية أقرب أرض لقبرص ، وكان أسهل على السيميسين أن يركبوا البحر إلى قبرص من أن يسافروا إلى أكثر الأماكن في داخل بلادهم ، لأن هذه الأماكن لم يكن يستطيع الوصول إليها إلا بعبور سلسلة جبال تاوروس . وكانت قبرص هي والشواطئ القليقية ، وشواطئ شمال الشام ، تؤلف وحدة جغرافية . وعلى هذا نستطيع أن نقول إن زيتون وخريسيبوس الرواقيين ، بل بوسيدونيوس أيضاً ، جاؤوا من إقليم واحد .

(٦٥) هذا يؤيد القول بأن الفلسفة الرواقية بلغت نضجها في الدولة الرومانية ، لا في العالم الروماني فحسب ، بل في مدينة روما . وكان ماركوس أوريليوس أحد أبناء هذه المدينة ، أما سينكيا الإسباني وايبكتيتوس الفريجي Epictetos the Phrygian فقد نبتا في روما .

(٦٦) وفي تلك الأيام كانت أثينا قد أصبحت أشبه بمدينة إقليمية ، ولكنها ظلت مركزاً للعلم والحكمة الوثنية . وكانت روما عاصمة الإمبراطورية ، أما أثينا فكانت هي المكان المقدس الظاهر الشأن .